جامعة الأزهـر
كلية اللغة العربية بالزقازيق
قسم الأدب والنقد

مآخذ القاضى الجرجانى على أبى تمام فى كتاب الوساطة

تأليف
الدكتور/ محمد محمد محمود الغرباوى
مدرس الأدب والنقد بالكلية

هديل للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٩٩٩م-١٤١٩هـ

هديل للنشر والتوزيع

جمهورية مصر العربية

الزقازيق: ميدان القومية ش الشهيد أحمد إسماعيل

تليفون وفاكس: ٣٦٣٦٨٩-٠٥٥-٠٢

ص.ب: ٢٧٣

رقم الإيداع : ٩٩/١٠٢٦٨

الترقيم الدولي: 977-306-012-7

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الفصحاء وإمام البلغاء، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه .... وبعد،،

فقد كان ظهور أبي تمام (ت ٢٣١هـ) بمذهبه الشعري الجديد ميداناً خصباً للنقد العربي في القرن الرابع الهجري ؛ فانقسم النقاد حوله فريقين: فريقاً يتعصب له، ويدافع عن مذهبه وهفواته التي أحصاها له النقاد، ويؤلف الكتب في هذا الشأن؛ وفريقاً آخر يتعصب عليه، ويتعقب أخطاءه يبرزها ويرويها، ويندد بها وبصاحبها في كل مكان، ويؤلف الكتب في هذا الشأن أيضاً.

فكان من الفريق الأول ، أبو بكر الصولي (ت ٣٣٥هـ) الذي جمع شعر أبي تمام، ورتبه على حروف الهجاء وشرحه ، وألف كتاباً بعنوان "أخبار أبي تمام" ، جمع فيه أخباره مع الشعراء والمسئولين، ودافع فيه عن أخطائه دفاع المحب المخلص.

وكان من الفريق الآخر عبدالله بن المعتز (ت ٢٩٦هـ) الذى ألف كتاب "البديع" فنفى فيه اختراع أبى تمام لهذا الفن، وذكر كثيراً من أخطائه فى هذا المذهب الذى اتبعه – كما ألف رسالة فى "محاسن أبى تمام ومساويه" رواها المرزبانى فى موشحه – كذلك ألف أحمد بن أبى طاهر (ت ٢٨٠هـ) كتابا فى سرقات أبى تمام من البحترى.

وجاء الآمدى (ت ٣٧١هـ) فألف كتاب "الموازنة بين شعر أبى تمام والبحترى"، وحاول أن يقف موقفاً وسطاً بين الشاعرين؛ فيبين مالهما وما عليهما – وهذا مانص

عليه فى بداية الكتاب – ولكنه لم يلتزم بهذا الشرط، فـانتصر للبحترى وتعصب لـه من وراء حجاب – كما قال كثير من النقاد – وكما هو واضح من خلال متابعته فـى كتابه، وتبرز روح التعصب للبحترى فى إبراز محاسنه والإكثار منها، والتقليل مـن أخطائه، بينما يكثر من إبراز عيوب أبى تمام فى مساحة أكبر من عيوب البحترى.

وعلى أية حال، فقد كان ظهور أبى تمام كسبا للنقد العربى فـى القرن الرابـع الهجرى ومابعده؛ حيث ترك لنا النقاد مجموعة من كتب النقد أثرت الحركة النقديـة، وأوصلت النقد إلى منتهاه فى هذا القرن.

ولم تخمد الحركة النقدية حول أبى تمام إلا بعد ظهـور شـاعر آخـر، لفت إليـه الأنظار، ودارت حوله المعارك، ذلكم الشاعر هو أبو الطيب المتنبـى؛ فشـغل النـاس بشعره، والتف حوله النقاد ينظـرون فـى هـذا الشـعر ويبـدون آراءهـم فيـه، إلا أنهـم انقسموا فريقين: فريقاً تعصب له، وآخر تعصب عليه؛ مما حدا بالقـاضى الجرجـانى (ت ٣٩١هـ) أن يؤلف كتابه الشهير "الوساطة بين المتنبـى وخصومـه" ، فـأعلن أنـه سيقف موقفا وسطا بيـن الشـاعر ونقـاده، إلا أنـه تعصـب للمتنبـى، وحـاول أن يـبرز محاسـنه ، وأن يتناسـى عيوبـه، ويدافـع عنهـا بذكـر حسـناته، واتخـذ جميـع السـبل والوسائل فى سـبيل تحقيـق غرضـه، فبدأ وسـاطته بذكـر أغـاليط الشـعراء القدمـاء؛ ليعتـذر لصاحبـه عـن أغاليطـه، ثـم ذكـر طائفـة مـن عيـوب الشـعراء المحدثيـن المشهورين، أمثال أبى تمام، وأبى نواس، وابن الرومى؛ وذلك للدفاع عن صاحبه.

وقد لفت نظرى وأنا أتصفح كتاب "الوساطة" تركيز الجرجانى على عيوب أبـى تمام، والإكثار منهـا، وتعقبهـا بحجـة أنـه مـن كبـار الشـعراء، وأنـه صـاحب مذهـب شعرى ومع ذلك فلم يشفع له تقدمه عند القاضى – فأخذ يتعقب أخطاءه، ويتوسع فى نشرها، ويردد أحكاماً تنقص من قدر أبى تمام، كضعف شعره، ووجود الأخطاء فـى كل قصائده، ونصحه بإلقاء نصف شعره!.

وانطلق الجرجانى يردد أقوال النقاد السابقين والمعاصرين له - وخصوصاً كلام أستاذه الآمدى فى الحكم على هذه الأخطاء ، بل ورأيته يطلق -أحيانا- كثيرا من آرائه الذوقية التى انفرد بها دون سواه، وكان فى -أحيان أخرى- يذكر الأخطاء دون تعليق عليها أو تحليل لها وتعليل لوجه الخطأ.

كل هذه الأمور دفعتنى للنظر فى مآخذ القاضى الجرجانى على أبى تمام، وأخذت بى فى محاولة لدراستها دراسة نقدية جادة، والوقوف منها موقفا نقديا عادلا، لاتعصب فيه لأبى تمام، ولاتعصب عليه؛ لأبرز محاسن الرجل، وأشير إلى سقطاته بدون غلو ولا تقصير، شافعاً هذه الأحكام برؤية النقد الحديث لشعر أبى تمام الذى ظلمه نقاده؛ لاتباعهم معايير معينة لاتتفق وروح شعره العميق الذى يحتاج إلى طول فكر، وكد خاطر فى استنباط خفيه، واستكناه بعيده.

ورأيت من المناسب تقسيم البحث إلى مقدمة، وأربعة فصول:

المقدمـــة : وتحدثت فيها عن الحركة النقدية فى عصر أبى تمام.

الفصل الأول : وتحدثت فيه عن أبى تمام ومذهبه الشعرى.

الفصل الثانـى: وتحدثت فيه عن الخصومة التى نشأت حول أبى تمام.

الفصل الثالث: وتحدثت فيه عن مآخذ النقاد على شعر أبى تمام.

الفصل الرابع: وتحدثت فيه عن نظرة القاضى الجرجانى لأخطاء أبى تمام وموقفه منها.

هذا وبالله التوفيق، وهو نعم المولى ونعم النصير،،

والحمد لله أولاً وآخراً...،،

د. محمد الغرباوى

أبها - السعودية

فـــى ١٥ من صفر ١٤٢٠هـ

الموافق ٣٠ مـايـــو ١٩٩٩م

الفصل الأول

أبو تمام ومذهبه الشعري

نشــأته وحيــاته :

أبو تمام شاعر معروف ، أشهر من أن يعرف به ، ولكن من المفيد الإشارة إلى طرف من حياته ، لتضيء جوانب شعره وشاعريته ، وتطلع المتلقي على هذه الشخصية العبقرية الفذة.

و "أبوتمام" كنيته ، وقد تكنى بها ، لأن ولده يسمى "تمام" أما اسمه فهو "حبيب بن أوس الطائي صليبة ، ومولده بقرية يقال لها جاسم"[1]. واختلف المؤرخون في سنة ميلاده ، فقيل سنة ١٧٢ من الهجرة ، وقيل سنة ١٨٢ ، وقيل سنة ١٩٢ ، ونسب إليه أنه قال : ولدت سنة ١٩٠ للهجرة[2]. وفي أخبار أبي تمام للصولي ، يذكر عون بن محمد الكندي أنه سمع أبا تمام يقول : مولدي سنة تسعين ومائة ، وذكر تمام بن أبي تمام أن مولد أبيه سنة ثمان وثمانين ومائة[3].

وحاول قوم الغض من شأنه ، فذكروا أنه حبيب بن تَدُوس النصراني ، وقالوا : إنه غُيِّر فصار أوسا ، وقالوا : إنه ليس من طيء ، ولكنه انتسب إليها – كما هجاه بعض معاصريه بأنه نبطي[4]. وربما كان هذا سبباً في اتهام بعض الناس له بالكفر، حيث اتهمه قوم بالكفر لتهاونه في الصلاة ، وقوله على شعر أبي نواس ومسلم بن الوليد : إنهما اللات والعزى ، وذلك في قول أبي الغصن محمد بن قدامة: "دخلت على حبيب بن أوس بقزوين وحواليه من الدفاتر ما غرق فيه فما يكاد يرى.... وإذا

---

(١) أخبار أبي تمام – أبوبكر الصولي ص ٥٩ – تحقيق : خليل محمود عساكر ، محمدعبده عزام نظير الإسلام الهندي – قدم له : د/ أحمد أمين – المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت (ب.ت).

(٢) انظر : تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول – د/شوقي ضيف ص ٢٦٨ – دار المعارف بمصر – ط٢ ١٩٧٢م.

(٣) انظر : أخبار أبي تمام ، للصولي ص ٢٧٢.

(٤) انظر : المصدر السابق ص ٢٣٥ ، ٢٤٦.

بحزمتين : واحدة عن يمينه وواحدة عن شماله ، وهو منهمك ينظر فيهما ويميزهما من دون سائر الكتب ، فقلت : فما هذا الذي أرى من عنايتك به أوكد من غيره؟ قال: أما التي عن يميني فاللات ، وأما التي عن يساري فالعزى ، أعبدهما منذ عشرين سنة. فإذا عن يمينه شعر مسلم بن الوليد صريع الغواني ، وعن يساره شعر أبي نواس"[1].

وحاول الصولي دفع هذه التهمة عن أبي تمام ، وذكر أنها ادعاء باطل من خصوم حاقدين ، فقال : "وقد ادعى قوم عليه الكفر بل حققوه وجعلوا ذلك عيباً للطعن على شعره وتقبيح حسنه وما ظننت أن كفراً ينقص من شعر ولا إن إيماناً يزيد فيه"[2].

وهذه الحجة في الدفاع عن أبي تمام تشبه حجة القاضي الجرجاني في دفاعه عن المتنبي حينما اتهم بالكفر والإلحاد ؛ للأبيات التي وردت في ديوانه وهي تمس العقيدة ، حيث دافع عنه الجرجاني بقوله : "والعجب فيمن ينتقص أبا الطيب ، ويغض من شعره لأبيات وجدها تدل على ضعف العقيدة وفساد المذهب في الديانة.... فلو كانت الديانة عاراً على الشعر ، وكان سوء الاعتقاد سبباً لتأخر الشاعر ، لوجب أن يمحى اسم أبي نواس من الدواوين ، ويحذف ذكره إذا عدت الطبقات ، ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية ، ومن تشهد الأمة عليه بالكفر .. ولكن الأمرين متباينان ، والدين بمعزل عن الشعر"[3].

---

(١) طبقات الشعراء ، لابن المعتز ، ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ – تحقيق : عبد الستار أحمد فراج دار المعارف بمصر – ط٤ مايو سنة ١٩٥٦م – شوال سنة ١٣٧٥هـ.

(٢) أخبار أبي تمام ، للصولي ص ١٧٢.

(٣) الوساطة بين المتنبي وخصومه – للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ص ٦٣ ، ٦٤ – تحقيق وشرح : محمد أبو الفضل إبراهيم ، علي محمد البجاوي – منشورات المكتبة العصرية – صيدا – بيروت (ب.ت).

وهذه قضية خطيرة ، وهي عزل الدين والأخلاق عن الشعر ، والنظر إلى العمل الفني نظرة فنية بحتة ، والعجب كل العجب من قول هذين الناقدين ، وهي أشد في حق القاضي الجرجاني ؛ فهو القاضي والعالم والفقيه !.

ويرى الدكتور / مندور ، أن هذه التهمة لم ترد في كتب النقد ، وليس لها أي صدى ، وإنما أوردها الصولي ؛ لينتصر لأبي تمام بشتى السبل[١]. ولكني أرى أنها تهمة حقيقية ، ادعاها عليه خصومه ، لمقالته السابقة عن أشعار أبي نواس ومسلم بن الوليد ، ويؤكد هذه التهمة ؛ ما ادعاه بعضهم عليه بأن أباه كان نصرانياً ، وبأن أبا تمام كان نبطياً – وكثيراً ما كان يهجى من هذا الجانب – ويسكت عن مهجويه ، فلا يرد عليهم.

وعلى الرغم من عروبة أبي تمام ، فقد حاول بعض الباحثين – استناداً لمثل هذه الأقوال – أن يشكك في عروبته ، فظن "مرجليوث في ترجمته له بدائرة المعارف الإسلامية أنه ربما كان اسم أبيه المذكور في المراجع القديمة على أنه "تدوس" محرف عن "تيودوس" وبنى طه حسين على هذا الظن أنه يوناني الأصل.... ونصرانية أبيه – إن صحت – لا تنفيه من العرب ولا من طيء"[٢]. والحق أنه كان عربياً صليبة – كما سبق أن بينا – وكثيراً ما افتخر بعروبته ، وبطائيته ، بل كان يتعصب لممدوحيه من طيء ، فيكثر من مديحهم ، ويذكر في قصائده أنه منهم ، وشعره في هذا الجانب مبثوث في ديوانه.

ولأبي تمام صفات كثيرة ، تحدث عنها المؤرخون ، والنقاد ، وهي صفات تدل على عبقرية فذة ، وشخصية واثقة ، فيذكرون أنه "كان أسمر طوالا ، وفيه

---

(١) انظر : النقد المنهجي عند العرب – د. محمد مندور ص ٨١ – دار نهضة مصر للطبع والنشر الفجالة – القاهرة (ب.ت).

(٢) تاريخ الأدب العربي – العصر العباسي الأول – د. شوقي ضيف ص ٢٦٨ ، ٢٦٩.

تمتمة يسيرة جعلته يتخذ غلاماً لإنشاد شعره بين يدي المعتصم وغيره"[1]. وهذه الصفة (التمتمة) ربما كانت سبباً في حدة ذكائه ، إذ جعلته يركز أكثر ، فلا ينطق كثيراً ، وإنما يقرأ أكثر ، ويتأمل ويفكر ويغوص على المعاني ، ويكتسب من العلوم والمعارف ما لم يحصله شاعر من شعراء عصره.

أما البحتري فكان ينشد شعره بنفسه بين يدي ممدوحيه ، ويدل بنفسه وهو ينشد ، كما كان يعرف كيف يوائم بين ألفاظه "وكيف يرشح لقوافيه ، وكيف يهيء لها مكانها ، ويصف الآذان للقائها ، إذ كان شاعراً ممتازاً في فن الصوت .... وكان يعرف في نفسه هذه الخاصية وكان تياهاً بها مدلاً ، حتى قالوا إنه كان إذا أنشد يتشادق ويتزاور في حركته مرة جانباً ومرة القهقرى ، ويهز رأسه مرة ومنكبه أخرى ، ويشير بكمه ، ويقف عند كل بيت ، ويقول : أحسنت والله ، ثم يقبل على المستمعين فيقول : ما لكم لاتقولون لي أحسنت ، هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقول مثله ، وربما صنع ذلك أمام الخلفاء فضج المتوكل من صنيعه ذات يوم وأقبل على الصيمري فقال : أما تسمع ما يقول يا صيمري وكان ينشده قصيدته:

عن أي ثغر تبتسم　　　وبأي طرف تحتكم

فقال : بلى يا سيدي مرني فيه بما أحببت ، فقال : بحياتي اهجه على هذا الروى الذي أنشدنيه"[2].

وهذا هو الفارق بين أبي تمام والبحتري ، فالأول شعره شعر فكرة ، فيه عمق وعقل وفلسفة وثقافة وحضارة ، والثاني شعره شعر بسيط واضح فيه تلاعب بالألفاظ والموسيقى الداخلية – وهذا ما حدا بالآمدي وأمثاله من النقاد المحافظين

---

(١) أخبار أبي تمام ، للصولي ص ٢٥٩.

(٢) معاهد التنصيص للعباسي ٨٣/١ نقلاً عن : الفن ومذاهبه في الشعر العربي – د. شوقي ضيف ص ٨٣ – ٨٤ – دار المعارف بمصر ط١٠ ١٩٧٨م.

على الصورة القديمة أن ينحازوا لجانب البحتري لسهولته ، وأن يعيبوا على أبي تمام لصعوبة فهم شعره وعمق ما فيه من أفكار – وهذا ما سنتعرض له في موطن آخر من هذا البحث إن شاء الله تعالى.

ومن صفات أبي تمام ، ذكاؤه الخارق ، فقد عرف بالذكاء الحاد ، والفطنة الذكية ، وسرعة البديهة ، يدل على ذلك قصته مع الكندي ، حيث عاب عليه الكندي– وهو ينشد قصيدته في مدح أحمد بن المعتصم – بعض أبيات ، فزاد أبو تمام بيتين لم يكونا في القصيدة بعد تفكير قليل وإطراقة يسيرة[١]. وهذا الذكاء أفاد أبا تمام كثيراً في شعره ؛ فساعده على التقاط المعاني من شتى المنابع ، وصياغتها صياغة شعرية جيدة ، روى ميمون بن هارون قال : "مر أبو تمام بمخنث يقول لآخر : جئتك أمس فاحتجبت عني ، فقال له : السماء إذا احتجبت بالغيم رجي خيرها. فتبينتُ في وجه أبي تمام أنه قد أخذ المعنى ، ليضمنه في شعره ، فما لبثنا إلا أياماً حتى أنشدت قوله:

ليس الحجاب بمقصٍ عنك لي أملاً ... إن السماء ترجى حين تحتجبُ"[٢]

وقد رأى بعض معاصريه أن ذكاءه الخارق سيكون سبباً في موته المبكر ، فمن ذلك ما نسب إلى "الكندي الفيلسوف أنه قال : هذا الفتى يموت قريباً لأن ذكاءه ينحت عمره كما يأكل السيف الصقيل غمده ، وفي رواية أخرى أنه قال: هذا الفتى يموت شاباً ، فقيل له : ومن أين حكمت عليه بذلك ؟ فقال : رأيت من الحدة والذكاء

---

(١) انظر القصة بالتفصيل في : أخبار أبي تمام للصولي ص ٢٣٠ : ٢٣٢.

(٢) الأغاني – أبو الفرج الأصبهاني ٣٩٦/١٦ – مؤسسة جمال للطباعة والنشر – بيروت – لبنان – (نسخة مصورة عن دار الكتب).

والفطنة مع لطافة الحس وجودة الخاطر ما علمت أن النفس الروحانية تأكل جسده كما يأكل السيف غمده"[١].

فلو صحت هذه الرواية عن الكندي ، يكون كلامه صحيحاً ، وتكون نبوءته صادقة في هذا الشاعر الذكي اللماح ؛ لأن عمره لم يطل ، إذ مات وهو ابن الأربعين ، وعلى الرغم من قصر عمره ، فقد خلف لنا علماً غزيراً ، وشعراً كثيراً، يدل على عقل واع ، وفكر ثاقب ، وشاعرية أصيلة.

ثقافته

عرف أبو تمام بذكائه الحاد ، وعبقريته الفذة ، ولم تذهب هذه العبقرية سدى، وإنما استخدمها صاحبها في الدرس والتحصيل ، فأكب على العلوم والمعارف المختلفة ينهل منها ، ويعب منها عباً ، حتى كون لنفسه ثروة علمية هائلة ، أفادته في أشعاره ومعارفه.

وكان أبو تمام مغرماً بجمع الكتب ، ينظر فيها ، ويفيد منها ، ذكر ابن المعتز في طبقاته ما يدل على هذا المعنى ، فقال : "حدثني أبو الغصن محمد بن قدامة قال : دخلت على حبيب بن أوس بقَزوين وحواليه من الدفاتر ما غرق فيه فما يكاد يرى ، فوقفت ساعة لا يعلم بمكاني لما هو فيه ، ثم رفع رأسه فنظر إليّ وسلم عليّ ، فقلت له : يا أبا تمام ، إنك لتنظر في الكتب كثيراً وتدمن الدرس فما أصبرك عليها ! فقال : والله مالي إلف غيرها ولذة سواها ، وإني لخليق إن أتفقدها أن أحسن"[٢].

---

(١) هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام للبديعي ص ٢٦ ، ٤٠ - نقلاً عن : الفن ومذاهبه في الشعر العربي - د. شوقي ضيف ص ٢٢٦.

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٨٣.

ولم يقتصر أبو تمام على الدرس والتحصيل من الكتب ، وإنما تنقل في كثير من المدن ، فقد نشأ في دمشق يختلف فيها إلى حلقات العلم والأدب ، ثم تركها إلى حمص ومدح بها بني عبد الكريم الطائيين ، ونراه يرحل إلى مصر ، وينزل في الفسطاط ، ويعيش من السقاية بمسجدها الكبير ، ويداوم فيه على حضور حلقات العلم ، ويساجل كثيراً من الشعراء المصريين - ولكنه لا يلبث أن يعود إلى موطنه دمشق ، ويزور خراسان وهمذان ويطلع على خزانة كتب أبي الوفاء بن سلمة بهمذان فيؤلف عدة كتب هناك من أهمها كتاب الحماسة[1].

وتعددت ألوان الثقافة لدى أبي تمام ، فكان شاعراً دارساً ، مؤلفاً ، راوية ، ناقداً - روى ابن المعتز في طبقاته قال : "حدثني يوسف بن إبراهيم قال : قال حبيب بن أوس : ثلاثة من الشعراء ذكروا الليل بمعان مختلفة لم يسبقوا إليها ، النابغة وبشار وخالد بن يزيد (وذكر لكل شاعر بيتاً من الشعر)"[2].

فهو راوية يعرف أصول الرواية وشروطها ، ويحمل عنه رواة يذكرون ما قاله من أحكام وآراء. ونراه ينقد الشعراء ، ويوجههم في بعض الأحيان ، يدل على ذلك ما رواه ابن المعتز في طبقاته ، قال : "حدثني أحمد بن زياد الفارسي قال : قال لي الأخيطل : أنشدت يوماً أبا تمام شيئاً من شعري فقال لي : اذهب إذا شئت فليس للناس بعدي غيرك"[3].

واتسعت معارف أبي تمام ، فاطلع على علوم كثيرة كالفلسفة والمنطق واللغة والفقه - وكل هذه المعارف واضحة في شعره ، وفي الإشارات التي كان يشير بها في كثير من أبياته إلى الفرق المختلفة ، وكذلك واضحة في معانيه

---

(١) انظر : الفن ومذاهبه في الشعر العربي - د. شوقي ضيف ٢١٩ ، ٢٢٠.

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٠٤.

(٣) المصدر نفسه ص ٤١١.

المنطقية والفلسفية التي تحتاج إلى عمق وتفكير وطول تأمل.

وقد عرف الشعراء لأبي تمام مكانته ، فشهدوا له بتفوقه ونبوغه وفضله وتقدمه ، فها هو البحتري يعترف بفضل أبي تمام في معنى تعاوره معه فيسأل : "أنت في هذا أشعر من أبي تمام ، فقال : كلا والله ذاك الرئيس الأستاذ ، والله ما أكلت الخبز إلا به ، فقال له محمد بن يزيد : يا أبا الحسن تأبى إلا شرفاً من جميع جوانبك"[1]. كما شهد له كثير من الشعراء غير البحتري ، فشهد له إبراهيم بن الفرج البندرنيجي ، وشهد له ابن الرومي ، وكل يقر بأستاذيته ، وأنه منه تعلم[2].

وشهد له كذلك كثير من العلماء والمسئولين ، فأبو عبد الله الرّقي – كاتب الحسن بن رجاء – يقول : "قدّم أبو تمام مدحاً للحسن بن رجاء ، فرأيت رجلاً علمه وعقله فوق شعره"[3].

وقد مكنته هذه المعارف من الاتصال برجالات عصره ، فمدحهم ونال صلاتهم ، وحظي عندهم بالمنزلة السامية ، فاتصل بأحمد بن أبي دؤاد ، والحسن ابن رجاء ، والحسن بن وهب ، وابن الزيات ، كما مدح المعتصم وغيره من الخلفاء والقواد والمسئولين.

وكان المسئولون يقدرونه ، وينزلونه منزلة تليق به ، فعني به "الحسن بن وهب ، وكان (أبو تمام) يكتب لمحمد بن عبد الملك الزيات ، فولاه بريد الموصل ، فأقام بها سنة ، ثم مات ودفن بها"[4].

---

(١) أخبار أبي تمام للصولي ص ٦٧.

(٢) انظر : المصدر نفسه ص ٦٧ ، ٦٨.

(٣) المصدر نفسه ص ١٦٧.

(٤) المصدر نفسه ص ٢٧٢ (بتصرف يسير).

مؤلفاته

اتسعت مدارك أبي تمام ، وتنوعت معارفه ؛ نتيجة كثرة الاطلاع في مختلف الكتب ، فألف عدة كتب ، تدل على غزارة علمه ، وسعة معارفه - وذكر الآمدي عدة تصانيف لأبي تمام ، منها : الاختيار القبائلي الأكبر ، ومنها الاختيار الذي تلقط فيه محاسن الشعراء ، ومنها اختيار المقطعات ، وهو مبوب على ترتيب الحماسة(١).

غير أن الآمدي جانبه الصواب في الحكم على أبي تمام من خلال هذه المعرفة بالشعر والتأليف فيه ؛ حيث جعلها سبباً في سرقاته الظاهرة والخفية ، فقال: "فهذه الاختيارات تدل على عنايته بالشعر ، وأنه اشتغل به ، وجعله وكده وغرضه ، واقتصر من كل الآداب والعلوم عليه ، وإنه ما فاته كبير شيء من شعر جاهلي ولا إسلامي ولا محدث إلا قرأه عليه وطالع فيه ، ولهذا أقول : إن الذي خفي من سرقاته أكثر مما ظهر منها ، على كثرتها. وأنا أذكر ما وقع إليّ في كتب الناس من سرقاته ، وما استنبطته أنا منها واستخرجته ، فإن ظهرت بعد ذلك منها على شيء ألحقته بها إن شاء الله"(٢).

ويعد كتاب "الحماسة" من أفضل ما ألف أبو تمام ، ونالت هذه الحماسة شهرة واسعة ، وحظيت بعدة شروح ، وتكمن قيمة الحماسة في أن "الشعر صنف فيها حسب المعاني والأغراض ، إلى جانب أنها تحوي مقطوعات قصيرة لكثير من الشعراء المقلين والمغمورين ، كما أن أبا تمام حرص على أن يختار للشعراء ابتداءً من الجاهلية إلى عصره ، وكثير من أشعار الحماسة يعتبر من الشواهد المعتمدة في

---

(١) انظر : الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري ، للآمدي ٥٨/١ ، ٥٩ - تحقيق : السيد أحمد صقر - دار المعارف بمصر ط٤ توزيع مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٩٩٢م.

(٢) المصدر السابق ٥٩/١.

العربية لغتها ونحوها ، ولذلك كله احتلت الحماسة منزلة كبيرة لدى العلماء والأدباء، ونالت من العناية ما لم تنله مجموعة أدبية أخرى"[١].

ومن خلال كتاب "الحماسة" شهد كثير من النقاد بعلم أبي تمام وسعة معارفه وكثرة اطلاعه ، فقال عنه ابن خلكان : "وله كتاب الحماسة التي دلت على غزارة فضله وإتقان معرفته بحسن اختياره"[٢]. كما حكم عليه كثير من النقاد - قديما وحديثاً - من خلال منهجه في الحماسة ، وربطوا بين شاعريته وحماسته ، فقال التبريزي : "أبو تمام في اختياره الحماسة أشعر منه في شعره"[٣].

واقترب الأستاذ : علي النجدي من حكم التبريزي على شاعرية أبي تمام ، فقال : "إن أبا تمام وفق في الاختيار من شعر غيره ما لم يوفق في نظم شعره فسلمت مختاراته من عيوب لم يسلم منها بعض شعره"[٤].

واتخذ أبو تمام لنفسه منهجاً في الحماسة ، يقوم على عدة أسس نقدية أهمها، "الجودة والاستحسان ، ومن العجيب أنه في اختياره لم ينبثق من مذهبه الشعري الذي يعنى أكثر ما يعنى بالغوص على المعاني ، وتصيد ألوان البديع وضروب الاستعارات ، بل تنكب هذا الطريق فاختار من الشعر ما كان أقرب إلى العفوية والصدق العاطفي"[٥].

---

(١) حماسة أبي تمام وشروحها - دراسة وتحليل د. عبد الله عبد الرحيم عسيلان ص ٥ - دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه ١٩٧٨م.

(٢) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، لابن خلكان ١٢/٢ - تحقيق : د. إحسان عباس - دار الثقافة - بيروت - الطبعة الأولى (ب. ت).

(٣) شـــــرح الحماسة ، للخطيب التبريزي ٤/١ - تحقيق وتعليق : محيي الدين عبد الحميد - مطبعة حجازي بالقاهرة ١٣٥٨هـ.

(٤) دراسة في حماسة أبي تمام - علي النجدي ناصف ص ٣٧ - مطبعة الرسالة ١٩٥٩م.

(٥) حماسة أبي تمام وشروحها - د. عبد الله عبد الرحيم عسيلان ص ٣٥.

ويوضح المرزوقي السبب في ذلك ، فيقول : "وأما تعجبك من أبي تمـام فـي اختيار هذا المجموع وخروجه عن ميدان شعره ومفارقته ما يهواه لنفسه .... فـالقول فيه أن أبا تمام كان يختار ما يختار لجودته لاغير ، ويقول ما يقول من الشعر بشهوته ، والفرق بين ما يشتهي وبين ما يستجاد ظاهر بدلالـة أن العـارف بـالبز قد يشتهي لبس مالا يستجيده ، ويستجيد ما لا يشتهي لبسه ، وعلى ذلك حال جميع أعراض الدنيا مع العقلاء العارفين بها فى الاستجادة والاشتهاء"[1].

وفي هذا الحكم من المرزوقي والدكتور عبد الله ، كثير من التجني ؛ إذ أن أشعار أبي تمام لا تخلو من الكثير الجيد الذي ينطلق فيه على سجيته وعفويته مما يوافق عمود الشعر العربي – كما أن أبا تمام صاحب مذهب فلسفي عقلي في الشعر، انطلق فيه بفكر عميق وتصنيع متأنق ، وكان مذهبه جديداً – ربما لم يسبق إليه – بهذه الصورة من العمق في المعاني ، والتأنق في التصوير ، وأشياء أخرى سنتحدث عنها في حينها إن شاء الله تعالى.

وقد أخذ كثير من النقاد على أبي تمام تصرفه في بعض الألفاظ الوحشية الغريبة الموجودة في بعض أبيات الحماسة ، وقالوا : إنه كان يبدلها ويضع مكانها ألفاظاً من عنده. وأول من فتق هذه القضية ، هو المرزوقي ، فقال : "تراه – أي أبا تمام – ينتهي إلى البيت الجيد فيه لفظة تشينه فيجبر نقصه من عنده ، ويبدل الكلمة بأختها في نقده ، وهذا يبين لمن رجع إلى دواوينهم فقابل ما في اختياره بها"[2].

كما تبنى المرصفي هذا الرأي ، فردد ما ذهب إليه المرزوقي ، قائلاً : "وقد قالت رواة الأدب إنه في اختياره أحسن منه في أشعاره. إلا أنه – سامحه الله

---

(١) شرح الحماسة ، للمرزوقي ١٣/١ – تحقيق : عبد السلام هارون ، أحمد أمين – مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – ط٢ ١٣٨٨هـ – ١٩٦٨م.

(٢) شرح الحماسة ، للمرزوقي ١٣/١ ، ١٤.

تعالى- كثيراً ما كان يعتمد على ذوقه ، فأحياناً يقدم ويؤخر في أبياته ، وأحياناً يبدل بعض كلمات العرب بكلماته"[1]. وهذا الكلام - وإن كان فيه انتصار لذوق أبي تمام- إلا أن فيه كثيراً من التجني عليه ، فمثلاً كلمة : يبدل كلمات العرب بكلماته - انتقاص لأبي تمام ، وحط من شأنه ؛ فكأنه ليس من العرب ، وكأنه لا يحسن لغتهم.

وعليه ، فالرأي غير صحيح ، إذ لم يثبت عن أبي تمام أنه غيّر لفظة من أشعاره هو - مع علمه بعدم إعجاب النقاد بها - وكان يعلل ذلك بأن أشعاره كأولاده، فيهم المستقيم والمعوج ، كما أن الحماسة ما زال يوجد بها ألفاظ وحشية ومستكرهة ولم تغير ، فقد يكون اختلاف الكلمات الشعرية في الحماسة عنها في الدواوين من قبيل الاختلاف في رواية الشعر ، وهذا واضح في كثير من دواوين الشعر وكتب الأدب ، أما لو سلمنا بصحة قول المرزوقي والمرصفي ، نكون قد جنينا جناية كبرى على أبي تمام وحماسته ، حيث يستشهد بكثير من أبيات الحماسة في اللغة ، وذلك باعتراف كثير من المحققين[2].

ومهما يكن من أمر فإن كتاب الحماسة لأبي تمام يعد من أهم الكتب الأدبية في هذا الشأن ، وله قيمة كبرى ، وقد حاول كثير من الشعراء والنقاد تقليده في هذا العمل ، فكثرت كتب الحماسة بعد حماسة أبي تمام ، كحماسة البحتري ، وحماسة ابن الشجري ، والحماسة البصرية وغيرها - كما أن للحماسة جوانب قيمة كبيرة ، منها التعرف على كثير من الشعراء المقلين والمغمورين ، ومنها احتواؤها على كثير من الشواهد النحوية واللغوية. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على ثقافة أبي تمام الواسعة ، وتنوع معارفه ، وكثرة اطلاعه.

---

(١) مقدمة كتاب أسرار الحماسة ، للمرصفي جـ١ حرف الزاي - نقلاً عن : حماسة أبي تمام وشروحها - د. عبد الله عبد الرحيم عسيلان ص٤٣.

(٢) انظر : حماسة أبي تمام وشروحها - د. عبد الله عبد الرحيم عسيلان ص٤٢.

وفـــاتـــه:

لم يختلف النقاد في سنة وفاته – كما اختلفوا في سنة ميلاده – ، فاتفقوا على أنه "مـات في جمادى الأولى سنة إحدى وثلاثين ومائتين ودفن بالموصل"[١].

مذهب أبي تمام الشعري:

إن المتأمل في شعر أبي تمام يجد نفسه أمام شاعر فذ ، ذي عقليـة كبيرة ، فقد قرأ شعر الأوائل وتذوقه ، وأضـاف إليه من علومه ومعارفه التي تـزود بهـا مـن خلال تثقيف نفسه بمختلف ثقافات عصره من فلسـفة ، ومنطـق ، وحكمـة ، فتكونـت لديه طريقة جديدة في تناول الشعر العربي ، وهي طريقة لم تكن معروفة من قبل.

ويعد مذهب أبي تمام جديداً ؛ لأنه جمع فيه كثيراً من الجزئيات التي عرفـت من قبل ، فـالبديع عـرف قبلـه ، والاسـتعارة جـاءت فـي شـعر السـابقين ، والمعـاني والصور والألفاظ كل هذا معروف قبله ، ولكن "أبا تمام خرج على الناس بنوع جديد من الشعر أخرجه من رأسه لا من قلبه ، فهو يغوص على المعاني العقلية غوصـاً ، ثم يرفعها إلى السماء ويعمل فيها خياله البعيد ، ويختار لها الألفاظ ، ويعنـى ببديعهـا وجناسـها ، فتـم لـه مـن معانيـه العميقـة إلـى القـاع ، وخيالـه المرتفـع إلـى السـماء ، وألفاظه المتجانسة المزوقة ، نوع جديد من الشعر لم يسبق إليه ؛ نعم إن كل جزئيـة من هذه الجزئيات قد سُبق إليها ، فقد سبقه مسلم بن الوليد بكثرة البديع والجناس فـي شعره ، وسبقه أبو نواس وبشار بكثرة المعاني وغزارتها ؛ ولكن كل هـذه الجزئيـات – مبالغاً فيها – لم تجتمع لأحد قبل ما اجتمعت لأبي تمام"[٢].

---

(١) أخبار أبي تمام ، للصولي ص ٢٧٢.

(٢) مقدمة أخبار أبي تمام – بقلم د. أحمد أمين ص أ‌اهـ.

فمذهب أبي تمام هو مذهب البديع ، أو كما سماه د. شوقي ضيف "التصنيع" والإكثار منه ، والعمق في المعاني ، والإبداع في الصورة والخيال ، والتميق في الألفاظ – وسار على هذا المذهب في معظم شعره ، فكان "الشعراء قبل أبي تمام يبدعون في البيت والبيتين من القصيدة ، فيعتد بذلك لهم من أجلّ الإحسان ؛ وأبوتمام أخذ نفسه وسام طبعه أن يبدع في أكثر شعره ، فلعمري لقد فعل وأحسن ، ولو قصر في قليل – وما قصر – لغرق ذلك في بحور إحسانه"[1].

وشعر أبي تمام في هذا المذهب الجديد ، له خصائص عقلية وزخرفية رائعة، أما "الخصائص العقلية فتتضح في دقة معانيه وغوصه على طرائفها النادرة، محتكماً إلى قانوني التضاد والقياس وإلى كثرة التوليد والاستنباط ، وأما الخصائص، الزخرفية فتتضح في روعة تصاويره وكثرة بديعه ، بل نحن لا نحقق حين نفصل بين الضربين من الخصائص ، إذ هما يتزاوجان عنده تزاوجاً رائعاً بحيث يصبح الزخرف عملاً عقلياً والعمل العقلي زخرفاً نادراً لا يكاد يتعلق به أحد"[2].

وقد عرف أبو تمام خصائص شعره وجدة مذهبه ، فدأب على "وصف أشعاره بالغرابة وباللآليء الفريدة ، يقول:

مفصاة باللؤلؤ المنتقى لها   من الشعر إلا أنه اللؤلؤ الرطب

وهي حقاً لآليء تومض بالفكر الدقيق وبألوان البديع الزاهية ، لآليء سوّي منها عقود قصائده وقلائد شعره"[3].

---

(١) أخبار أبي تمام ، للصولي ص ٣٨.

(٢) تاريخ الأدب العربي – العصر العباسي الأول – د. شوقي ضيف ص ٢٧٨ ، ٢٧٩.

(٣) المرجع السابق ص ٢٨٩.

ونحن مع الدكتور شوقي ضيف الذي يرى أن شعر أبي تمام لم يسقط في مهاوي الغموض والزخرفة كما رماه بذلك النقاد القدماء من المتحاملين عليه ؛ لعدم فهمهم طريقته الشعرية ، وقصورهم في تفسير مراميه البعيدة.

كان شعر أبي تمام إذاً صورة جديدة للشعر ، لم يألفها النقاد من قبل ، فجاء شعره "بصوره العميقة المركبة ، ومعانيه التي تحتمل التأول ، محاولاً تجاوز بساطة القديم ، وسذاجة صوره فاستخدم التشخيص في التصوير ، وعمد إلى المحسنات البديعية من جناس وطباق ومقابلة فجعلها منسوجة في لحمة الصورة تضخ في ثناياها خيالات ورؤى تزيد في عمقها ، فأثار معاصريه ، فهم بين مؤيد ومعارض ، وبدأ النقاد يناقشون شعره ، واحتدمت المعركة بين أنصاره وخصومه ، وظهرت دراسات جادة تحلل شعره وترسي قواعد ومقاييس نقدية يعرض عليها الشعر المحدث كله"[1].

وقد أعجب كثير من النقاد القدماء بشعر أبى تمام وبمذهبه الجديد، فقال صاحب الأغانى عنه: "شاعر مطبوع، لطيف الفطنة، دقيق المعانى، غواص على ما يستصعب منها، ويعسر متناوله على غيره. وله مذهب فى المطابق، هو كالسابق إليه جميع الشعراء، وإن كانوا قد فتحوه قبله، وقالوا القليل منه، فإن له فضل الإكثار فيه، والسلوك فى جميع طرقه. والسليم من شعره النادر شيء لايتعلق به أحد. وله أشياء متوسطة، ورديئة رذلة جداً"[2] .

---

(١) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري ، للآمدي جـ٣ القسم الأول ص٤٦ – دراسة وتحقيق: د. عبد الله حمد محارب – الناشر : مكتبة الخانجي – القاهرة ط١ ١٤١٠هـ ١٩٩٠م.

(٢) الأغاني ٣٨٣/١٦.

كما أعجب بشعره وبمذهبه الشاعر عمارة بن عقيل ، روي أنه سمع شعراً لأبي تمام فاستزاد المنشد منه ، ثم قال "كمل والله ، لئن كان الشعر بجودة اللفظ ، وحسن المعاني ، واطراد المراد ، واتساق الكلام ، فإن صاحبكم أشعر الناس"(١).

وأعجب ابن المعتز بشعر أبي تمام – على غزارته – ورأى أن شعر الرجل لا يشق له غبار ، يقول : "ومما يستملح من شعره – وشعره كله حسن – داليته في المأمون التي أولها:

كشف الغطاء فأوقدى أو أخمدي .... ولو استقصينا ذكر أوائل قصائده الجياد التي هي عيون شعره لشغلنا قطعة من كتابنا هذا بذلك وإن لم نذكر منها إلا مصراعاً ، لأن الرجل كثير الشعر جداً ، ويقال إن له ستمائة قصيدة وثمانمائة مقطوعة ، وأكثر ما له جيد ، والرديء الذي له إنما هو شيء يستغلق لفظه فقط ، فأما أن يكون (في) شعره شيء يخلو من المعاني اللطيفة والمحاسن والبدع الكثيرة فلا. وقد أنصف البحتري لما سئل عنه وعن نفسه فقال : جيده خير من جيدي ، ورديي خير من رديه. وذلك أن البحتري لا يكاد يغلط لفظه إنما ألفاظه كالعسل حلاوة ، فأما أن يشق غبار الطائي في الحذق بالمعاني والمحاسن فهيهات ، بل يغرق في بحره ، على أن للبحتري المعاني الغزيرة ، ولكن أكثرها مأخوذ من أبي تمام ، ومسروق من شعره"(٢).

فابن المعتز معجب بمذهب أبي تمام ، وإنما يعيب عليه أشعاره التي استغلقت ألفاظها فقط ، ورأى أن البحتري لا يجاري أبا تمام في معانيه ومحاسنه ، وأن معظم معاني البحتري مسروقة من أبي تمام ومأخوذة منه.

---

(١) المصدر السابق ١٦/٣٨٥.

(٢) طبقات الشعراء ، لابن المعتز ص ٢٨٤-٢٨٦.

ويقف الآمدي في الجانب الآخر لابن المعتز ، فيوازن بين مذهب الشاعرين، أبي تمام والبحتري ، ويرى أنهما "مختلفان لأن البحتري أعرابي الشعر مطبوع وعلى مذهب الأوائل وما فارق عمود الشعر المعروف وكان يتجنب التعقيد ومستكره الألفاظ ووحشي الكلام فهو بأن يقاس بأشجع السلمى ومنصور النمري وأبي يعقوب الخريمي المكفوف وأمثالهم من المطبوعين أولى ، ولأن أبا تمام شديد التكلف صاحب صنعة ويستكره الألفاظ والمعاني وشعره لا يشبه أشعار الأوائل ولا على طريقتهم لما فيه من الاستعارات البعيدة والمعاني المولدة فهو بأن يكون في حيز مسلم بن الوليد ومن حذا حذوه أحق وأشبه"[1].

ثم يخبرنا الآمدي بحيرته في وجود مكانة لأبي تمام ؛ حيث لا يجد من يقرنه به ؛ "لأنه ينحط عند درجة مسلم لسلامة شعر مسلم وحسن سبكه وصحة معانيه ، ويرتفع عن سائر من ذهب هذا المذهب وسلك هذا الأسلوب لكثرة محاسنه وبدائعه واختراعاته"[2]. فالآمدي يعيب مذهب أبي تمام ، بل ويرفضه ؛ لتجاوزه مذهب الأقدمين ، ويرضى بمذهب البحتري ؛ لسيره على مذهبهم – وكأن كل عيوب أبي تمام في شعره ، هي مخالفة القدماء في الطريقة.

والحق أن الشاعرين متباينان في مذهبيهما ، وهذا التباين له أسبابه ، وترجع هذه الأسباب للنشأة ، والثقافة ، والمقدرة العقلية على استيعاب الثقافات الجديدة ، وصياغتها صياغة شعرية ماهرة – فأما "أبو تمام فحضري مثقف ثقافة واسعة ، وهو لذلك يأخذ تصنيع مسلم ويعقده تعقيداً شديداً ؛ أما البحتري فشاعر بدوي ، وهو لذلك لا يستطيع أن ينهض بما نهض به أبو تمام من التعبير عن الرقي العقلي الذي صادف العقل الحضري وصناعة الشعر الحضرية. ومعنى ذلك أن البحتري اتصل بأبي تمام ، وعرف المناهج الجديدة ، ولكنه لم يستطع أن يجاريه في صناعته ، فهو

---

(١) ، (٢) الموازنة ٦/١.

أعرابي من أهل البادية ، ومثله لايستطيع أن ينتقل دفعة واحدة من القديم إلى الجديد، فوقف تأثره بأبي تمام عند الجوانب الظاهرة ، ولم يستطع أن يتغلغل إلى أعماق شعره"(1).

فالقضية إذن ليست قضية خروج على المألوف أو التزام به ، وإنما القضية هي استطاعة أو إخفاق في مجاراة العصر وروحه الحضرية الثقافية الجديدة ، وقد نجح أبو تمام في مذهبه ؛ بسبب نشأته ، وعقليته الكبيرة ، وأخفق البحتري ؛ لبداوته، وفطريته ، وعدم تعمقه في الأشياء التي حوله.

وكان أبو تمام معجباً بمذهبه الشعري ، إلا أنه كان عنيداً أمام النقد ، فلم يكن يعبأ بأقوال النقاد في شعره ، بل كان يمضي معبراً عن رغبته وعبقريته ، ولا يأبه لنقد ناقد أو طعن طاعن ، روي عن بعض الشعراء أن "أبا تمام أنشده قصيدة له أحسن في جميعها ، إلا في بيت واحد ، فقال له : يا أبا تمام ، لو ألقيت هذا البيت ما كان في قصيدتك عيب. فقال له : أنا والله أعلم منه مثل ما تعلم ، ولكن مثل شعر الرجل عنده مثل أولاده ، فيهم الجميل والقبيح ، والرشيد والساقط ، وكلهم حلو في نفسه ، فهو وإن أحب الفاضل ، لم يبغض الناقص ، وإن هوِي بقاء المتقدم ، لم يهو موت المتأخر"(2).

وكما انتقده النقاد القدامى ، وحطوا من شأنه ، انتقده كثير من النقاد المحدثين ، ورأوا أن مذهبه جر عليه كثيراً من المتاعب والانتقادات ، ومن هؤلاء النقاد الدكتور مندور ، الذي يرى أن أبا تمام "قد طغى المذهب على طبعه إلى حد كبير ، ولذلك كثر سقطه وإن لم يخل شعره من الجميل الرائع في بعض الأحيان ، بحيث يبدو لنا أن مذهبه كان أقوى من طبعه وأن صنعته كثيراً ما أفسدت ذوقه.

---

(1) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، د. شوقي ضيف ص191-192.

(2) الأغاني 16/383.

نظر أبو تمام في الشعر القديم والحديث وأراد أن يجدد فلم يستطع إلا في الصياغة ، وذلك لأنه كان مغلولاً بالتقاليد ، والصياغة خيرها أصيل لايمكن تقليده لغلبة العناصر الشخصية العميقة الدقيقة في لغة كل كاتب أو شاعر ، كطريقة نسجه للعبارة ومنحاه في الأداء ثم نوع أسلوبه"(١).

فتحامل الدكتور مندور هنا واضح ، فقد جرد أبا تمام من كل فضل في التجديد سوى الصياغة ، وأغفل بديع معانيه ، وروعة صوره ، وعمق فكرته – كما أنه ذكر أن لأبي تمام شعراً جميلاً رائعاً – في بعض الأحيان – وهذا غير صحيح ، فشعره الرائع كثير جداً.

ويؤكد هذا الكلام – وهو عدم التجديد – في موطن آخر ، فيقول : "وإنما قامت بين أنصار أبي تمام وخصومه (أي المعارك) كأن هذا الشاعر قد جدد الشعر العربي تجديداً حقيقياً ، وكأنه قد خرج على ما عهده الجاهليون والأمويون من شعر، مع أنه كما قلنا لم يغير شيئاً في الأصول الفنية للشعر العربي ولم يخرج إلا على عموده كما يقولون"(٢).

البديع

أجمع النقاد – قديما وحديثاً – على أن مذهب أبي تمام ، هو مذهب البديع ، ولكنهم اختلفوا في أصل هذا المذهب ونشأته ، فمنهم من يرجعه إلى العصر العباسي، كالجاحظ الذي يقول عنه : "ومن الخطباء الشعراء ممن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن كلثوم بن عمرو العتابي وكنيته أبو عمرو ، وعلى ألفاظه وحذوه ومثاله في البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من شعراء المولدين كنحو منصور النمري ومسلم بن الوليد الأنصاري وأشباههما ،

---

(١) ، (٢) النقد المنهجي عند العرب ، د. محمد مندور ص ٥٨ ، ٧٥.

وكان العتابي يحتذي حذو بشار في البديع ، ولم يكن في المولدين أصوب بديعاً من بشار وابن هرمة"[1].

ومن النقاد من يرى أن هذا المذهب ليس عربياً ، بل هو فارسي الأصل ، وقد عرفه الأدب العربي عن طريق الفرس[2]. ومنهم من يرده إلى أصول عربية قديمة خالصة ، كابن المعتز الذي ألف فيه كتاباً ، بعنوان "البديع" وذكر فيه أن هذا الفن ليس من اختراع شعراء العصر العباسي ، وإنما ترجع جذوره إلى القديم في اللغة العربية – قال: "قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن واللغة وأحاديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون البديع ليُعلم أن بشاراً ومسلماً وأبا نواس ومن تقيلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ولكنه كثر في أشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمي بهذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه"[3].

ويتحدث ابن المعتز بعد ذلك عن مذهب أبي تمام في البديع ، وإكثاره منه ، ثم ينعي عليه إفراطه فيه ، وما جره عليه ، فيقول : "ثم إن حبيب بن أوس الطائي من بعدهم شغف به حتى غلب عليه وتفرع فيه وأكثر منه فأحسن في بعض ذلك وأساء في بعض وتلك عقبى الإفراط وثمرة الإسراف وإنما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيت والبيتين في القصيدة وربما قرئت من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع وكان يستحسن ذلك منهم إذا أتى نادراً ويزداد حظوة بين الكلام

---

(١) البيان والتبيين ، للجاحظ ٦٣/١ – تحقيق وشرح : حسن السندوبي – دار إحياء العلوم – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م.

(٢) النثر الفني ، د. زكي مبارك ٤٤/١ – نقلاً عن ؛ الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، د. شوقي ضيف ص ١٧٥.

(٣) البديع ، لعبد الله بن المعتز ص ١ ، ٢ – اعتنى بنشره وتعليق المقدمة والفهارس عليه: اغناطيوس كراتشتوفسكي – لندن ١٩٣٥.

المرسل وقد كان بعض العلماء يشبه الطائي في البديع بصالح بن عبد القدوس في الأمثال ويقول لو أن صالحاً نثر أمثاله في شعره وجعل بينها فصولاً من كلامه لسبق أهل زمانه على مد ميدانه وهذا أعدل كلام سمعته في هذا المعنى"[1].

ويرى ابن رشيق أن مسلم بن الوليد ، هو "أول من تكلف البديع من المولدين وأخذ نفسه بالصنعة وأكثر منها ، ولم يكن في الأشعار المحدثة قبل صريع الغواني إلا النبذ اليسيرة"[2].

وإذن ، فالبديع قديم ، ويضرب بجذوره إلى العصور الأولى ، أي أنه لم "ينشأ لأول مرة في العصر العباسي ، بل له مقدمات واضحة في الأدب العربي ، وقد رأينا أن نسمي هذا المذهب الذي كمل نضجه عند العباسيين باسم التصنيع ، لأن كلمة البديع معناها الطريف ولا تعطي معنى الزخرف والزينة بخلاف كلمة التصنيع التي تدل بمعناها على التأنق والتنميق"[3].

ويرى الدكتور شوقي ضيف أن ابن المعتز "كان أكثر دقة من الجاحظ حين لاحظ أن البديع بمعناه الاصطلاحي المحدث إنما كان عند بشار ومسلم وأبي نواس ، وهو يعود فيذكر أن أبا تمام أول من جعله وكده من صناعة الشعر وعمله فالأولون لهم الكثرة من ألوان هذا المذهب التي كانت تأتي في ندرة عند القدماء ، وأول من جعله مذهباً أبو تمام(٤).

---

(١) البديع ، لعبد الله بن المعتز ص ١ ، ٢.

(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، لابن رشيق القيرواني ٢٦٢/١ - تحقيق : د. محمد قرقزان دار المعرفة - بيروت - لبنان - ط١ ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

(٣) ، (٤) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، د. شوقي ضيف ص١٧٦.

فالفن معروف لدى القدماء ، وقد أرسى دعائمه مسلم بن الوليد ، لكنه لم يتخذه مذهباً له ، ويعد أبو تمام أول شاعر اتخذ البديع مذهباً له ، فعقد فيه وأبدع ضروباً لم يعرفها من خاضه قبله من الشعراء.

وإذا أردنا الترتيب الصحيح لأصحاب البديع ، اتبعنا طريقة ابن المعتز في طبقاته ، حيث قال : "كان مسلم بن الوليد صريع الغواني مداحاً محسناً مجيداً مفلقاً ، وهو أول من وسع البديع ، لأن بشار بن برد أول من جاء به. ثم جاء مسلم فحشا به شعره ، ثم جاء أبو تمام فأفرط فيه وتجاوز المقدار"[1].

واختلف النقاد في أثر هذا المذهب ، فمنهم من يرى أنه أفاد الشعر تنميقاً ودقة وعمقاً ، ومنهم من يرى أن هذا المذهب قد أضر بشعر أبي تمام نفسه ، حيث كان "معيناً للشراح والنساخ على تحريف شعره وتصحيفه ، لأن شعر هذا الشاعر جاء على غير ما ألف القوم ، جاء بعيد المعاني ، غريب الاستعارات ، مليئاً بالطباق والجناس ، فتعثرت به الأفهام والأقلام ، وكثر فيه التأويل ، وزاد فيه التصحيف والتحريف .... أبعد هذا الشاعر في معانيه ، فأبعد شراحه في تأويلاتهم وتخريجاتهم، وتشابه كثير من ألفاظه لكثرة جناسه ، فتشابه كثير من رواياته ، وكان رأساً لمذهب جديد في الشعر العربي ، فاختلف فيه الأدباء بين متعصب عليه ومتعصب له ، وكان لهذه الخصومة أثرها في تناول شعره والنظر إليه وكان لهذه الضجة التي أحدثها هذا الشعر أثرها أيضاً في كثرة ما طرأ عليه من تصحيف وتحريف"[2].

---

(١) طبقات الشعراء ، لابن المعتز ص ٢٣٥.

(٢) مقدمة ديوان أبي تمام – بقلم : محمد عبده عزام ١/١٤ ، ١٥ – ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي – تحقيق : محمد عبده عزام – دار المعارف بمصر – ط٤ ١٩٧٦م.

ولست أرى ذلك عيباً في مذهبه ، بل على العكس ، فهذا يدل على قيمة شعر أبي تمام وروعته ، فاختلاف اللغويين والنقاد والأدباء حول فهم هذا الشعر ، دليل على عمقه وإبداعه ، وليس قصوراً في الشاعر وشعره.

وبعد ... فهذا هو أبو تمام ، وهذا مذهبه في الشعر ، وهو كما رأينا مذهب جديد لم يألفه الشعراء قبله ، فكان جديداً على بيئته – وإن كان يمثلها أصدق تمثيل – مما كان سبباً في اصطدام الشاعر بكثير من القدماء الذين لم يفهموا أبعاده النفسية والعقلية ، فهاجموه بشراسة ، وحطوا من قيمة شعره ، فانبرى لهم آخرون يدافعون عن الشاعر وعبقريته ، ونشأ من ذلك الصراع خصومة نقدية تكونت حول الشاعر ، أثرت الحركة النقدية والأدبية ، وخلفت لنا تراثاً ضخماً في هذا الميدان – وهذا ما سنبينه في الفصل القادم إن شاء الله تعالى.

الفصل الثاني

الخصومة حول أبي تمام

أسبـــاب الصراع :

حدث صراع عنيف في العصر العباسي بين أنصار الشعر القديم وأنصار الشعر الحديث ، وتعصب كل فريق لمذهبه يدافع عنه بشتى السبل ، وكانت كل مجموعة من الشعراء تنتمي لمذهب معين ، فأنصار القديم يرون في مذهبهم المحافظة على التراث واللغة ، وأصحاب الجديد يرون في مذهبهم التجديد والحرية.

وقد قامت الخصومات في الشعر العربي "حول ثلاثة من الشعراء يمثلون اتجاهات قوية. إما لأنهم قد أتوا بمذهب جديد أو تشبه الجديدة أو لأنهم قد صدروا عن طبع أصيل. فأبو نواس وأبو تمام قد أحدث كل منهما في الشعر العربي حدثاً : جدد أبو نواس من روح الشعر ومن بناء القصائد أحياناً ، وخرج أو حاول الخروج على تقاليد العرب الفنية والخلقية ، فأثار ضجة نسبية ، واتخذ أبو تمام من البديع مذهباً أصبح رأساً له ، وإن ظل يرقص في السلاسل القديمة. كما يقول ناقد غربي أو "يطرز على ثياب خلقة" كما قال الآمدي. وجاء المتنبي فسار في أول حياته على نهج أبي تمام وأخذ بمذهبه وتتلمذ له .... وكان له حتى اليوم في الأدب العربي أبلغ الأثر "[١].

واحتدم الصراع بين الفريقين ، وحاول علماء اللغة أن يبرروا موقفهم من الشعر الحديث ؛ وذكروا أن من أهم أسباب الصراع ، محافظتهم على قواعد اللغة الموروثة والنظام الشعري القديم – وهذا ما حدا بابن الأعرابي أن يصيح – وقد أنشد شعراً لأبي تمام. "إن كان هذا شعراً فما قالته العرب باطل ! ".

وكان لأصحاب اللغة عذرهم في هذا العنف الذي قابلوا به الشعراء المحدثين؛ وذلك لحاجتهم للشواهد النحوية وعدم التماسها في أشعار المحدثين ، ولهذا السبب "شن علماء اللغة حملتهم على المحدثين بعصبية شديدة ويدفعهم في هذا

---

(١) النقد المنهجي عند العرب ، د. محمد مندور ص ١٦٤ ، ١٦٥.

حرصهم على الانتصار للقديم ، إذ يرون فيه منبع الأصالة والقوة والقياس ، ومعيناً لا ينضب للشاعرية الحقيقية"[1] .

وقد جمع اللغويون كل جهودهم لمحاربة الشعراء المحدثين ، وأصبح "جل اهتمامهم منصرفاً إلى البحث عن المثل والشاهد في الشعر الجاهلي حتى نهاية فترة الاستشهاد ، وإن كنا لا ننكر دقة ذوقهم ونظراتهم الفنية القيمة ، كما كانوا يرون أنهم حماة اللغة والحرسة على تراثها ، وهذا المنهج خلق لهم إطاراً ذهنياً أثر في أذواقهم ، وطبعها بطابعه فظهرت على آرائهم آثار هذا الميسم ، فكان منهم هذا الموقف المتطرف في التعصب للقديم ، واختصوا به دون غيرهم"[2] .

هذا عن اللغويين والنحاة في القرن الثالث الهجري ، أما اللغويون والنحاة في القرن الرابع الهجري ، فمختلفون كل الاختلاف عن سابقيهم ، فقد "امحت في النقد أو كادت ذهنية اللغويين والنحويين ، فلم نعد نرى ناقداً كأبي عبيدة ، أو يونس بن حبيب ، أو ابن الأعرابي وأشباههم من الذين حللوا عناصر الشعر ، وآثروا فريقاً من الشعراء على فريق. فليس لابن دريد أثر في النقد ظاهر ، وهو أعلم الشعراء ، وأشعر العلماء ، وهو الضليع في اللغة والشعر وأيام العرب ، وأنسابها .... فأما النحويون فكانت عنايتهم بالنقد الأدبي ضئيلة خفيفة لاتكاد تحس .... ولكن هؤلاء وغيرهم من نحويي هذا العصر كأبي القاسم الزجاجي صاحب كتاب "الجمل" ، وأحمد بن فارس لم يشرحوا خصائص شاعر ، ولم يتدخلوا في خصومة بين محدث ومحدث، اللهم إلا أشياء من اليسر، ومن الندرة، بحيث لا تشفع لنا أن نعدهم من

---

(١) الموازنة ج٣ – القسم الأول ص٤٥ ، بقلم د. عبدالله محارب.

(٢) المرجع السابق ص٤٦.

النقاد"[1].

وإذا كان النحاة واللغويون لم يفصلوا النقد فى القرن الرابع الهجرى، فإن النقاد قاموا بهذه المهمة، فوضعوا الكتب، وكثرت فيها آراؤهم، وكثر تحليلهم للشعر، ونقدهم المعلل له؛ ولهذا نعترف بأن نقادنا القدماء فى القرن الرابع الهجرى "هم الذين عنوا بدراسة الشعر، وتقدير رجاله، وتحاوروا فيه، وتخاصموا، وهم يمتازون عن أدباء القرن الماضى (الثالث الهجرى) بأن غورهم أبعد، ونظراتهم أعمق، وآفقهم أفسح، وبأنهم حللوا الظواهر الأدبية وعللوها وأرجعوا كل شىء إلى أصل وسبب، هم أدباء علماء ذوقهم عربى سليم، وثقافتهم عربية غزيرة، وإن تعاطى فحولهم التأليف على مذهب الجاحظ فى الجدل والحوار"[2].

وبلغ التعصب للقديم مداه عند لغويي القرن الثالث الهجري ، فكانوا يرفضون الشعر الحديث لحداثته ، ولم ينظروا في جودته – وحتى لو أعجبوا به لم يمنعهم التعصب عليه من رفضه – ويؤيد ذلك "ما رواه أبو عمرو بن أبي الحسن الطوسي قال : وجه بي أبي إلى ابن الأعرابي لأقرأ عليه أشعاراً ، وكنت معجباً بشعر أبي تمام فقرأت عليه من أشعار هذيل ثم قرأت أرجوزة أبي تمام على أنها لبعض أشعار هذيل :

وعاذل عذلته في عذله ... فظن أني جاهل من جهله

حتى أتممتها ، فقال : اكتب لي هذه ، فكتبتها له ، ثم قلت : أحسنة هي ؟ قال : ما سمعت بأحسن منها ! قلت : إنها لأبي تمام فقال : خرق خرق"[3] .

---

(1) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، للمرحوم : طه أحمد إبراهيم ص١٣٨ ، ١٣٩ – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ط١ ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.

(2) المرجع السابق ص١٣٩.

(3) أخبار أبى تمام، للصولى ص١٧٥،١٧٦.

فاللغويون والنحاة تعصبوا للقديم ، ورفضوا أشعار المحدثين ، ورفضوا الاستشهاد بها ، وحجتهم في ذلك أنهم محدثون لايجوز الاستشهاد بشعرهم ولا روايته، بل وحطوا من شأنه – وهذا واضح في كثير من أقوالهم المبثوثة في كتب الأدب والنقد.

وفي مقابل هؤلاء اللغويين المتعصبين على الحديث ، نرى اهتمام النقاد بهذا الشعر وجمعه والكتابة عنه ، "فالمبرد مثلاً ألف كتاب "الروضة" واختار فيه من الشعر المحدث ، وفعل مثله هارون بن علي المنجم في كتابه "البارع" وابن المعتز في "طبقات الشعراء". وجمع بعضهم دواوين الشعراء المحدثين فصنع أحمد بن أبي طاهر طيفور شعر بكر بن النطاح ودعبل ومسلم والعتابي ومنصور النمري والبحتري وأبي نواس ... الخ"[1].

وقد تدخل أسباب شخصية ، في هذا الصراع ، فيتعصب ناقد لشاعر أو عليه ؛ لأسباب خاصة بعيدة عن النقد والأدب. فالخصومات التي "تشأت حول الشعراء قبل المتنبي لم تخل من عناصر شخصية .... فأبو نواس قد تحامل عليه خلق كثير لشعوبيته وفساد خلقه ، كما تحاملوا على أبي تمام لحسدهم له وإخماله لذكرهم. وفي أخبار أبي تمام للصولي فصل ذكر فيه هجاء الشعراء لأبي تمام. والناظر هجائهم يرى آثار الحسد واضحة ، ومن بينها مالا يدع مجالاً للشك في أن بعض أسباب الخصومة كان التنافس على صلات الممدوحين"[2].

ويذكر لنا الصولي سبباً آخر من أسباب الصراع بين القديم والحديث ، هذا السبب هو جهل النقاد بهذا الشعر الجديد الذي لم تصل إليه عقولهم ، ولم تتسع له

---

(١) اتجاهات النقد الأدبي في القرن الرابع الهجري ، د. أحمد مطلوب ص ١٨٣ – الناشر : وكالة المطبوعات – الكويت ط١ ١٣٩٣هـ – ١٩٧٣م.

(٢) النقد المنهجي عند العرب ، د. محمد مندور ص١٦٣.

مداركهم ، فكانوا يرفضونه لقصور فيهم ، يقول : "وقصروا فيه (في معرفة الشعر الحديث) فجهلوه وعادوه كما قال الله عز وجل : (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) ، وكما قيل : الإنسان عدو ما جهله ، ومن جهل شيئاً عاداه ، وفرّ العالم منهم من قوله إذا سئل أن يقرأ عليه شعر بشار وأبي نواس ومسلم وأبي تمام وغيرهم ، من (لا أحسن) إلى الطعن ، وخاصة على أبي تمام لأنه أقربهم عهداً ، وأصعبهم شعراً"(١).

ومع ما في هذا القول من التجني على النقاد ، إلا أنه يبين لنا مدى التحامل على الشعر الحديث وأصحابه – وخصوصاً أبا تمام – وعدم النظر فيه بعين الحق والصواب، بل كان يرفضه جملة لحداثته.

وكان أبو تمام يمثل رأس مدرسة جديدة ، هي مدرسة البديع ، التي أرسى قواعدها مسلم بن الوليد – كما مر بنا سابقاً – وكانت "الظاهرة التي مثلها أبو تمام في الشعر قد شغلت النقاد والمتذوقين في القرن الثالث ، ثم ورثها نقاد القرن الرابع وأمعنوا فيها .... وألف فيه ابن المعتز (–٢٩٦) رسالة مستقلة ، ويتضح مما جاء فيها انقسام الناس إزاءه – في دور مبكر – في فريقين حتى جعل ابن المعتز أسباب التحامل عليه لجاجاً في الخصومة التي اضطلع بها من ينفرون من طريقته ، لإفراط الذين يقدمونه ويتعصبون له"(٢).

وبالطبع فإن أبا تمام واحد من المحدثين ، بل هو زعيم مدرسة وصاحب مذهب ؛ ولهذا فهو يدخل في الشعراء المحدثين وفي أسباب الصراع السابقة بين القديم والحديث – بالإضافة إلى أسباب خاصة به نذكرها فيما يلي:

---

(١) أخبار أبي تمام ، للصولي ص ١٤ ، ١٥.

(٢) تاريخ النقد الأدبى عند العرب د/إحسان عباس ص١٤٧–دار الثقافة بيروت لبنان ط٤ ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.

من هذه الأسباب حسد الشعراء لـه ومنافستهم إياه في الوصول إلى بلاط الخلفاء والأمراء ، وفي ذلك يقول الأصفهاني : "أخبرني محمد قال : حدثني أحمد بن يزيد المهلب عن أبيه قال : ما كان أحد من الشعراء يقدر على أن يأخذ درهما بالشعر في حياة أبي تمام ، فلما مات اقتسم الشعراء ما كان يأخذه"[1].

فهذه الرواية تدل على عبقرية أبي تمام وقبضه على زمام الشعر ، وتحكمه في بلاط الخلفاء والأمراء ؛ مما كان سبباً في حقد كثير من الشعراء عليه ، وحسدهم له ، ومحاولتهم الغض من شأنه.

ومن هذه الأسباب ، تكسب بعض الناس بذكر معايبه والتأليف في سقطاته ؛ ليرتفع بذلك قدرهم ، ويبزغ نجمهم ، يقول الأصفهاني : "وهذا (أي التعصب له أو عليه) مما يتكسب به كثير من أهل هذا الدهر ، ويجعلونه وما جرى مجراه من ثلب الناس ، وطلب معايبهم ، سبباً للترفع ، وطلباً للرياسة"[2].

ويؤيد الأصفهاني فيما ذهب إليه رواية الصولي ، عند تحديد خصوم أبي تمام ، فقال: "وأما الصنف الثاني ممن يعيب أبا تمام ، فمن يجعل ذلك سبباً لنباهة ، واستجلاباً لمعرفة ، إذ كان ساقطاً خاملاً ، فألف في الطعن عليه كتباً ، واستغوى عليه قوماً ، ليُعرف بخلاف الناس ، وليجرى له ذكر في النقص إذ لم يقع له حظ في الزيادة ، ومكسب بالخطأ إذ حرمه من جهة الصواب. وقد قيل : خالف تُذكر"[3].

وهذا الرأي فيه كثير من الصواب ؛ لأننا نرى – حتى في زماننا هذا – من يحاول الوصول والظهور على سقطات غيره وهفواته ، وهذا يختلف عن النقد

---

(١) الأغانى ١٦/٣٨٨.

(٢) الأغاني ١٦/٣٨٣.

(٣) أخبار أبي تمام ، للصولي ص٢٨.

الحقيقي للأمور ، وتقويمها تقويماً علمياً صحيحاً وفق أسس ومباديء متعارف عليها عند أهل كل علم.

ظهر أبو تمام بمذهبه الجديد ، فشغل الناس بشعره ، وانقسموا تجاه شعره فريقين ؛ فريق يتحامل عليه ، ويتتبع سقطاته ، فينقدها ويذيعها في كل مكان - وفريق يتعصب له ، ويمدح شعره ، ويدافع عنه بكل سبيل ، ويحاول إيجاد المبررات للأخطاء والسقطات.

ويبدو أن الخصومة وصلت إلى حد اللجاجة ، بسبب وبدون سبب ؛ مما جعل النقاد والرواة ينفرون من مثل هذه الخصومة ، وينادون بالاعتدال في النقد ، فهذا هو الأصفهاني يطلعنا على ما وصل إليه اللجاج بين الفريقين ، فيقول : "وفي عصرنا هذا من يتعصب له (لأبي تمام) فيفرط ، حتى يفضله على كل سالف وخالف، وأقوام يتعمدون الرديء من شعره فينشرونه ، ويطوون محاسنه ، ويستعملون القِحّة والمكابرة في ذلك ، ليقول الجاهل بهم : إنهم لم يبلغوا علم هذا وتمييزه إلا بأدب فاضل ، وعلم ثاقب"[1].

ويرى الأصفهاني أن الإنصاف واجب ، وأن التعصب أو التحامل ممقوت ، بل يجب نقد العلوم نقداً نزيهاً ، وإعطاء كل ذي حق حقه ، والوقوف عند السقطات والتنبيه عليها ، والإشادة بالحسنات وجودتها ، يقول : "وليست إساءة من أساء في القليل ، وأحسن في الكثير ، مسقطة إحسانه ؛ ولو كثرت إساءته أيضاً ثم أحسن ، لم يُقل عند الإحسان أسأت ، ولا عند الصواب أخطأت ، والتوسط في كل شيء أجمل، والحق أحق أن يتبع"[2].

(١) الأغاني ١٦/٣٨٣.

(٢) الأغاني ١٦/٣٨٣.

ولم تقتصر الخصومة حول أبي تمام على التـأليف فـي عيوبـه أو محاسنه ، وإنمـا تعدتهـا إلـى خصومـة أخرى ، هـي الخصومـة الشـفوية ، "فقد كـانت واسـعة النطاق، ولم تسكن ثائرتها في القرن الرابع ، بل لعلها ازدادت في النصف الأول منه حدة ، كما أن حركة التأليف في الانتصار له أو في تبيان عيوبه قـد اتسـعت ؛ وكـان الجانب الأكبر من جهد نقاد القرن الثالث في مجالسهم وفي ما كتبوه عنـه يميـل إلـى إبراز عيوبه"[1].

فظهور أبي تمام بهذا المذهب ؛ كان سبباً في حركـة نقديـة كبيرة ، فـانبرى النقاد يؤلفون وينقدون ، ويعللون – في كثير من الأحيان – لهذا النقـد ، وقـد اختلـف النقاد حول أبي تمام ، وقمت بتصنيفهم ثلاثة أصناف : صنـف متعصـب لـه ، محـب لشعره ، يرى فيه كل جديد وكل جودة.

وصنف متعصب عليه ، مبغض لشعره ، يرى فيه كل غث وكل عيب.

وصنف ثالث حاول أن يقـف موقفاً وسـطاً بيـن الشـاعر وخصومـه ، يـبرز حسناته ، وينتقد سيئاته ، وسأتحدث عن كل فريق علـى حـدة ، مقتصـراً علـى أمثلـة من كل فريق ؛ حتى لايخرج البحث عن أصوله.

الفريق الأول : أنصار أبي تمام

حـاول هـذا الفريـق الانتصـار لأبـي تمـام ، فنظـروا فـي شـعره بعيـن الحـب والتقدير ، وغضوا عيونهم عن هفواته ، ورموا خصومه بالجهل وضعف البصيرة ، وسلكوا كل سبيل في الدفاع عن شاعرهم المفضل. ويمثل هذا الفريق أصـدق تمثيـل مجموعة من النقـاد، من أبرزهـم أبوبكـر الصولـي ، لـذا سـنتحدث عنـه بشـيء مـن التفصيل.

---

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، د. إحسان عباس ص١٤٧.

١ - أبو بكر محمد بن يحيى الصولي (ت ٣٣٦هـ).

وقف الصولي بجانب أبي تمام مدافعاً عنه دفاع المحب المخلص ، وألف فيه كتاباً قيماً ، عنوانه "أخبار أبي تمام" وتحدث في هذا الكتاب عن أخبار الشاعر وصلاته برجالات عصره ، وذكر فيه جملة من محاسنه ، ثم ذكر طرفاً من عيوبه ودافع عنها ، ولم ينس الحديث عن نقاد أبي تمام وخصومه رامياً إياهم بالجهل والتقصير في فهم شعر هذا الشاعر الكبير.

وسلك الصولي في الدفاع عن أبي تمام سبيل الجرجاني في دفاعه عن المتنبي ، فعيوب أبي تمام كثيرة كما صورتها كتب الأدب والنقد ، وقد ذكر الصولي بعضها ورد عليها ، ولكنه تحدث قبل ذلك عن شعر المحدثين وما فيه من تجديد وأصالة وتمييز على القديم ، ثم دافع عن أبي تمام ورد ما اتهم به من عيوب في شعره ، واتخذ قاعدة في ذلك هي وقوع القدماء في أخطاء كثيرة مع عدم سقوط مراتبهم ، ولكن النقاد أسقطوا أبا تمام حينما قصر أو سقط ، وكان الأجدر بالصولي أن يحلل شعر أبي تمام ويظهر ما فيه من إبداع ويقارنه بغيره لتتبين مزيته ، ويظهر فضله ، ولو فعل ذلك لكان خيراً من قياسه بالشعراء الذين عيبوا قبل أبي تمام(١).

وقد دافع الصولي عن أبي تمام بشراسة ، وتعصب له ، ورمى أعداء أبي تمام بكل نقيصة ، حتى لقد جعل نقاده من الجهال الذين لا يعرفون قدره ، ولايحسنون فهم شعره ، فقال فيهم : "وليت أبا تمام مُني بعيب من يجل في علم الشعر قدره ، أو يحسن علمه ، ولكنه مُني بمن لا يعرف جيداً ولاينكر رديئاً إلا بالادعاء .. ولولا ما اضطررت إليه من الاحتجاج لما ندبتني له لما كان لمثل هؤلاء خاطر في فكري ، ولاطريق على لساني ، ولا أحلت منهم أحداً لذمي"(٢).

---

(١) انظر : النقد الأدبي في القرن الرابع الهجري ، د. أحمد مطلوب ص ٢٠١ :٢٠٣.

(٢) أخبار أبي تمام ، للصولي ص ٣٨ ، ٤١.

ويرمي الصولي نقدة أبي تمام بالجهل والتحايل لتصيد الأخطاء ، فيقول : "وقد رأيت – أعزك الله – بعض هؤلاء الجهلة يصحف أيضاً على أبي تمام ، ثم يعيب مالم يقله أبو تمام قط ، وأنا ذاكر ذلك في موضعه من الشعر "[1].

وهذا الرأي له خطره في التاريخ الأدبي والنقدي على السواء ، لأنه لو صحت أقواله في نسبة شعر لأبي تمام ، وتصحيف بعضه ثم نقده ، لكان هذا النقد غير نزيه ، ولفتحنا باب الانتحال من جديد ، ولنزعنا الثقة من كثير من علمائنا الأجلاء.

ثم يهيب بأبي تمام بألا يأبه لأقوال هؤلاء ؛ لأنه لا يضره "قول هؤلاء ، كما أنه لايضر البحر أن يقذف فيه حجر ، ولاينقص البدر أن ينبحه الكلب"[2].

وهذه القسوة في تناول نقاد أبي تمام ؛ جعلت النقاد المحدثين يتباينون في موقفهم من الصولي ، فيرميه الدكتور مندور ، بالجهل والكبر والغرور ، ويتهكم به بقوله : "إنه لم يكن يقوى على إنشاد قصائده (أبي تمام) غير الصولي ، لأنه هو العليم بكل خبر الفهيم لكل معنى، كما لم يكن لأحد غنى عنه ليمكن الاحتجاج لأبي تمام وعليه. وتلك هي روح الصولي الثقيلة في كتابه "أخبار أبي تمام" وفي هذا ما يدعونا إلى الاحتياط في قبول أقواله لأن الغرور أفسد عليه أمره ، ومن ثم كنا أميل إلى ألا نعلق قيمة كبيرة على تحمسه لأبي تمام وقدحه في خصومه"[3].

ويرى فى مكان آخر أن خصوم أبي تمام لم يكونوا من الجهلة ، ويبرر خصومتهم لأبي تمام بشيء آخر غير الجهل ، يقول : "معظم الذين وقفوا من أبي تمام موقف المزري لم يكونوا جهلة أو من الغافلين كابن الأعرابي والأصمعي

---

(١) أخبار أبى تمام للصولى ص٥٦.

(٢) المصدر السابق ، ص٤٦.

(٣) النقد المنهجي عند العرب ، د. محمد مندور ص ٨٣.

والمبرد وثعلب ودعبل وأبي سعيد الضرير ، ولكنهم كانوا يرون في شعره خروجاً على أساليب العرب ، وكان معظمهم ممن يعنيهم أمر اللغة والحفاظ عليها ، وإذا كانت في بعض أحكامهم قسوة فليس مرده إلى الجهل وإنما إلى موقفهم من الأدب عامة ، يضاف إلى ذلك أن اختلاف الرأي ليس مرده إلى الجهل كما قال الصولي ، وإنما مرده في الغالب إلى اجتهاد قد يكون مصيباً. وقد لايكون كذلك"[1].

وإني أختلف مع هذا الناقد في حكمه ، صحيح أن معظم هؤلاء من العلماء والشعراء، ولكن ليس من الضروري أن يفهم كل هؤلاء شعر أبي تمام بأسلوبه الجديد ، ومذهبه البديع ، وهم غارقون في القديم وأسسه وأصوله وصموا آذانهم عن سماع هذا الشعر المحدث في طريقته وصياغته وصوره ، إذ كان كل ما يعنيهم من الشعر اللغة والقياس عليها والحفاظ على قواعدها – أضف إلى ذلك تعصبهم على الحديث ورفض الجديد والغض من شأن هذا الشاعر الذي خرج على تقاليد العرب التي يحافظون هم عليها.

ويرمي الدكتور مندور الصولي بالتعصب وفساد الذوق وعدم الموضوعية ، وكل ذلك بسبب وقوفه بجانب أبي تمام والدفاع عنه ضد الخصوم ، يقول : "الصولي هو في الحق المتعصب المغرض. وإنه وإن يكن في كتابه ما يدل على انحيازه للشعر الحديث عن ذوق فني خاص ، فإن الذي يبدو هو أن مناصرته لأبي تمام كانت أقرب إلى اللجاجة والإسراف منها إلى النقد الموضوعي الدقيق. ويزيد الحكم عليه قسوة إفراطه في الغرور والتبجح بعلمه ، ثم فساد ذوقه وصدوره عن نظرة شكلية يغرها البهرج وتطرب للغريب"[2].

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٠٠.

(٢) النقد المنهجي عند العرب ، د. محمد مندور ص ٩٣.

ولاأدري لم هذا العنف والقسوة في الحكم من الدكتور مندور ، وأراه قد وقع فيما عاب به الصولي من اللجاجة والإسراف في الحكم على الرجل بالجهل والغرور وفساد الذوق ، فجرده من كل علم ، ونسب إليه كل رذيلة ، ورماه بكل نقص.

ويبلغ الدكتور مندور مداه في تحامله على الصولي ، ويلخص منهجه بقوله: "وهكذا يتضح لنا منهج الصولي في النقد : فهو تعصب ولجاجة عقلية وفساد ذوق وإسراف في الغرور والتماس للفرص يظهر فيها علمه"(١).

وإذا كان الصولي ظلم من الدكتور مندور ، فقد وجد من ينصفه من النقاد الذين نظروا إليه بعين العلم والحكم المجرد من الهوى ، فنرى الدكتور أحمد أمين يصفه بالصدق والثقة في الرواية ، فيقول : "والصولي ثقة فيما يرويه قريب عهد بأبي تمام ، له بصر بالأدب ، وذوق جيد في التقدير"(٢).

وهذا حكم صائب ، فقد كان الصولي قريب عهد بأبي تمام ، سمع منه ، ورأى كثيراً من الخصومات الدائرة ، فنقلها بأمانة ، وأثبتها في كتابه ، وقد تناقلتها كثير من الكتب بعده ، فنقل عنه الأصفهاني في الأغاني والمرزباني في الموشح – ولم نسمع من كذّبه في رواياته أو خطأه في أحكامه ، فلو كان كاذباً في ادعائه ، أو جاهلاً فيما يقول ، لانبرت الأقلام المعاصرة له في تجريحه وتكذيب أقواله.

ويقف الدكتور إحسان عباس موقفاً عادلاً في الحكم على الصولي ، ويبرر تعصبه لأبي تمام ، ويرى "أن موقف أبي بكر الصولي كان رداً على أمثال ابن عمار ممن حاولوا أن يغمطوا أبا تمام حسناته .... ومجمل رأي الصولي أن النقد لا يكون بإبراز بعض العيوب والتشهير بالشاعر من أجلها وإغفال ما له من حسنات كثيرة إزاءها ، فكيف إذا كانت تلك العيوب مجتلبة ، ونسبة التقصير إلى الشاعر

---

(١) النقد المنهجي عند العرب ، د. محمد مندور ص ٩٨.

(٢) مقدمة أخبار أبي تمام ، بقلم د.أحمد أمين ص أ أ هـ.

مفتعلة .... والحق أن كتاب الصولي – رغم موقفه الدفاعي – يعد في كتب السيرة أكثر مما يعد في كتب النقد"[1].

٢ – **محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي (ت ٣٨٨هـ).**

وكان الحاتمي من أنصار أبي تمام ، ويبدو هذا التعصب لأبي تمام واضحاً في المناظرة التي دارت بينه وبين أعرابي متعصب للبحتري ، وقد وردت هذه المناظرة في كتاب "زهر الآداب" للحصري ٣/٢٠ : ٢٧.

٣ – **قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ).**

ومن الممكن أن نعد قدامة بن جعفر من أنصار أبي تمام ؛ فقد ذكر ياقوت في معجم الأدباء ٦/٢٠٤ ، أنه ألف كتاباً في الرد على ابن المعتز فيما عاب فيه أبا تمام. كما أنه ألف كتابه المعروف "نقد الشعر" ووضع فيه أسساً للشعر الجيد ، والشعر الرديء ، وبين فيه عيوب الشعر ، من ألفاظ ، ومعان ، وقواف – ولم يستشهد بشيء من شعر أبي تمام ، سوى بيت واحد في آخر الكتاب تحت عنوان : عيوب ائتلاف المعنى والقافية ، وذكر مثالاً له بيت أبي تمام :

كالظبية الأدماء صافت فارتعت ... زهر القرار الغض والجثجاثا

مما يجعلنا مطمئنين لهذا الحكم ، ونقرنه بأنصار أبي تمام.

الفريق الثاني : خصوم أبي تمام (المتحاملون عليه).

وفي مواجهة الفريق الأول ، وجد فريق آخر ، تعصب على أبي تمام ، وألف فيه رسائل أو كتباً ، تبرز مساوئه ، وتركز على سقطاته تركيزاً شديداً ؛ يحط من قدر الشاعر ، وقد يخفي محاسنه ، أو يمر عليها مروراً سريعاً ، إذ كان كل همهم منصرفاً إلى القدح في شعره ، والغض من شأنه.

(١) تاريخ النقد الأدبي ، د. إحسان عباس ص ١٤٩ : ١٥١.

وسأتحدث عن بعض هؤلاء النقاد ؛ لأبرز صورة التحامل على أبي تمام ، ولأبين مدى ما أصاب النقد من ظلم وتجاوز على أيدي هؤلاء المتحاملين.

١ - عبد الله بن المعتز (ت ٢٩٦هـ).

ألف ابن المعتز رسالة في محاسن شعر أبي تمام ومساوئه ، وهذه الرسالة ورد معظمها في كتاب "الموشح" للمرزباني من ص ٣٤٦ : ص ٣٥٩ - وقال في أولها : "ربما رأيت في تقديم بعض أهل الأدب الطائي على غيره من الشعراء إفراطاً بيناً ، فاعلم أنه أوكد أسباب تأخير بعضهم إياه عن منزلته في الشعر لما يدعوه إليه اللجاج ؛ فأما قولنا فيه فإنه بلغ غايات الإساءة والإحسان"[١].

فوصفه بغاية الإحسان وغاية الإساءة في وقت واحد ، ولكنه عاد فركز على سيئاته ، وتتبع سقطاته يبرزها ويعيب عليها ، ولم يذكر من حسناته شيئاً مثل قوله : "وهذا بعيد جداً من الإحسان .... نرجع الآن إلى ما ابتدأنا به (يعني التنبيه على سيئاته). فمن ابتداءاته المذمومة ، قوله: "[٢]. وقوله: "وقد أسقطنا من معايب شعره كثيرا لم نثبته في رسالتنا هذه، وقصدنا من ذلك ما يبرر الحجة، ويفل حد النصرة""[٣] وقوله : "كاد البيت أن يكون جيداً لولا أن في "لألاء المساعي" بغضاً انظر كيف ضعّف القول ، واضطرب. قبحه الله! .... هذا وأمثاله مما أنكره عليه إسحق بن إبراهيم ، حتى قال له : لقد شددت على نفسك"[٤] .

---

(١) الموشح ، للمرزباني ص ٣٤٦.

(٢) المصدر نفسه ص ٣٤٩.

(٣) المصدر نفسه ص٣٥٥

(٤) المصدر نفسه ص٣٥٨.

ومضى ابن المعتز على هذا النسق في رسالته ، يفخم من شأن الأخطاء ، ويعلق عليها تعليقات جارحة قوية ، بعيدة عن الصواب - في كثير من الأحيان - مردداً أقوال بعض النقاد في أحيان أخرى.

وحاول بعض الباحثين دفع تهمة تعصب ابن المعتز على أبي تمام ، فالتمس لابن المعتز عذراً ملخصه أن سوء التحقيق كان سبباً في ذلك الخلط ، حيث جعل النصوص تتداخل في مواضع كثيرة من الكتاب ، فاختلط رأي المرزباني - وهو من خصوم أبي تمام - برأي ابن المعتز(١).

واستند الناقد في دفاعه عن ابن المعتز إلى مديحه لأبي تمام وشعره في ترجمته له في طبقاته ، وثنائه على شعره ، وذكره عبارات تشيد بشعر أبي تمام وجودته(٢).

وهذا لايشفع لابن المعتز ، فربما أثنى على الشاعر في طبقاته قبل أن يتعصب عليه وتتعكر أسباب المودة بينهما ، وربما كان يرى فيه الجودة والإحسان باديء الأمر ثم غير رأيه فيه وانحاز للبحتري ؛ لأنه يقول في طبقاته عن البحتري: "وقد أنصف البحتري لما سئل عنه وعن نفسه فقال : جيده خير من جيدي ، ورديي خير من رديه"(٣). ثم يعلق على هذا الرأي بقوله : "وذلك أن البحتري لايكاد يغلط لفظه وإنما ألفاظه كالعسل حلاوة ، فأما أن يشق غبار الطائي في الحذق بالمعاني والمحاسن فهيهات ، بل يغرق في بحره. على أن للبحتري المعاني الغزيرة، ولكن أكثرها مأخوذ من أبي تمام ، ومسروق من شعره"(٤).

---

(١) انظر : الموازنة جـ٣ القسم الأول ، بقلم د. عبد الله حمد محارب ص ٤٦ هامش ٢.

(٢) انظر : طبقات الشعراء ، لابن المعتز ص ٢٨٢ : ٢٨٦.

(٣) ،(٤) المرجع السابق ص ٢٨٦.

فالاضطراب واضح في أحكام ابن المعتز على أبي تمام ، فمرة يشيد بأبي تمام ومرة يغمز بالإساءة في شعره - خصوصاً في الألفاظ - ويؤكد هذا الكلام أحكامه عليه في كتابه "البديع" ، حيث يكثر من الاستشهاد بشعره المعيب ويعلق عليها أحياناً ويسكت في الغالب عن التعليق ، ويردد كلامه الذي ورد في رسالته السابقة على لسان إسحق بن إبراهيم ، فيقول في كتاب "البديع" : "وبلغنا أن إسحق بن إبراهيم رأى حبيب الطائي ينشد هذا وأمثاله (أي قوله :

المجد لايرضى بأن ترضى بأن ... يرضى المؤمل منك إلا بالرضى

عند الحسن بن وهب فقال يا هذا شددت على نفسك"[1].

وعندما تحدث ابن المعتز عن "حسن التشبيه" لم يذكر بيتاً واحداً لأبي تمام ، وإنما ركز على أبي نواس ، وبشار ، والبحتري - وأهمل أبا تمام إهمالاً تاماً - كل ذلك يجعلني أعتقد أن ابن المعتز كان من المتحاملين على أبي تمام.

٢ - أحمد بن عبيد الله بن عمار القطربلي (ت ٣١٩هـ).

ويعد ابن عمار من أشد المتعصبين على أبي تمام ، حيث ألف فيه رسالة بين فيها أخطاءه في الألفاظ والمعاني ، حتى إن الآمدي وصفه بالتحامل على الشاعر ، وذكر أنه طعن فيما لا يطعن عليه فيه ، واحتج بما لا تقوم به حجة ، وأورد أبياتا من شعر أبي تمام دون أن يدل على وجه العيب فيها ، وقد وصفه الآمدي بالإسراف - كل هذا يؤكد موقف ابن عمار واحتكامه للهوى[2].

---

(١) البديع ، لابن المعتز ص ٢٠٦.

(٢) انظر : تاريخ النقد الأدبي عند العربي ، د. إحسان عباس ص ١٤٨ ، ١٤٩.

فالآمدي قد لاحظ هذه الملاحظة الدقيقة ، وأخبرنا بأن ابن عمار لـم ينصـف أبا تمام في المآخذ التي أخذها عليه ، فقال : "وتجـاوز ذلـك بعضـهم إلـى القـدح فـي الجيد من شعره وطعن فيما لايطعن عليه واحتج بما لا تقوم حجة به ولم يقنـع بذلـك مذاكرة ولا قولاً حتى ألف فيه كتاباً وهو أبو العباس أحمد بن عبيد الله بن محمد بـن عمار القطربلي المعروف بالعُزير ، ثم ما علمته وضع يـده مـن غلطـه وأخطائـه إلا على أبيات يسيرة ولم يقم على ذلك الحجة ولم يهتد لشرح العلة ولم يتجاوز فيما نعاه بعد عليه الأبيات التي تتضمن بعيد الاستعارة وهجين اللفظ ، وقـد بينـت غلطـه فيمـا أنكر عليه من الصواب في جزء مفرد إن أحب القارىء له أن يجعله من جهلـة هـذا الكتاب ويصله بأجزائه فعل ذلك إن شاء الله"[1].

وهذا يوضح أن الآمدي أخبرنا بأنه خطأ القطربلـي فـي مـآخذه ، إلا أنـه لـم ينكـر كـل الأخطـاء ، وإنمـا "وافقـه فـي بعضـهـا وأنكـر بعضـهـا وأوضـح مـا لـم يوضحه"[2].

وهذا يوضح موقف الأمدى من أبى تمام، فهو وإن تظاهر بإنصافه إلا أنه لم ينصفه تماما وسأوضح ذلك عند الحديث عن الفريق الثالث إن شاء الله تعالى.

٣ - دعبل بن علي الخزاعي (ت ٢٣٥ أو ٢٤٦هـ).

وكان الشاعر دعبل ، من المتعصبين على أبي تمام ، وكان يرميه بالسرقة ، وروي أنه قال في أبي تمام: "لم يكن أبو تمام شاعراً ، وإنمـا كـان خطيبـاً ، وشـعره بالكلام أشبه منه بالشعر؛ وكان يميل عليـه ، ولـم يدخلـه فـي كتابـه كتـاب الشـعراء،

---

(١) الموازنة ١/١٣٥.

(٢) اتجاهات النقد الأدبي ، د. أحمد مطلوب ص ١٩٨.

وسئل دعبل عن أبي تمام فقال : ثلث شعره سرقة ، وثلثه غث - أو قال غثاء ، وثلثه صالح"[1].

ويتضح من حكم دعبل هذا تعنته وصلفه وظلمه لأبي تمام ؛ فقد غمط الرجل ، وأسقط شاعريته - والسبب في هذا التحامل ، هو الحسد والحقد ؛ فقد كان دعبل يعرف قدر أبي تمام وتقدمه ويعرف قصور نفسه إذا قيس بأبي تمام ، وهو الذي اعترف بهذا في قوله لعصابة الجرجرائي : "لم ندفع فضل هذا الرجل ، ولكنكم ترفعونه فوق قدره ، وتقدمونه على من يتقدمه ، وتنسبون إليه ما قد سرقه"[2].

وكثيراً ما كان دعبل يدعي السرقة على أبي تمام ، روي أن سمع قصيدة لأبي تمام - ولم يعلم أنها له - فامتدحها بأنها أحسن من عافية بعد بأس ، فلما علم أنها لأبي تمام قال : لعله سرقه[3].

وقد قلنا إن تقدم أبي تمام هو السبب في حسد دعبل له وحقده عليه ، ولما سئل دعبل بعد موت أبي تمام عن طعنه في شعره ، قال : "أحسن والله ! وجعل يردد "فيا دمع أنجدني على ساكني نجد" ، ثم قال : رحمه الله ! لو كان ترك لي شيئاً من شعره لقلت إنه أشعر الناس"[4].

فهو معترف بفضله ، ولكن تعصب عليه لأسباب كثيرة ، منها : تقدم أبي تمام وتعصب قوم له وتقديمه على غيره ، ومنها : أن دعبلاً شاعر وقد دخلته الغيرة من رجل شاعر مثله وقد تقدمه وظهر على جميع الشعراء.

---

(١) الموشح ، للمرزباني ص ٣٤٤.

(٢) الأغاني ٣٩٣/١٦.

(٣) انظر : الأغاني ٣٨٨/١٦.

(٤) المرجع نفسه ٣٩٨/١٦.

وواضح أن دعبلاً لم يكن منصفاً في موقفه من أبي تمام ، فقد رماه بالسرقة، ووصف شعره بأوصاف لا تليق به ، وأسقط ثلثي شعره ، مما يجعلنا نضمه للمتحاملين عليه.

وليس هذا بغريب من شاعر هجاء ، لزم الشطار في أول أيامه ، مما يؤكد أنه كانت فيه نزعة متأصلة إلى الشر ، جعلته يهجو معظم من أسدى إليه معروفاً ، وكفر نعمهم عنده ، ويطعن كل من قدم له صنيعاً ، وينطوي على كره الناس[1].

الفريق الثالث : المنصفون لأبي تمام - أو المتظاهرون بذلك.

وفي خضم هذا المعترك ، حاول فريق من النقاد الوقوف من أبي تمام موقفاً وسطاً ، فألفوا الكتب النقدية ، وذكروا فيها أنهم منصفون للرجل ، وأنهم سيزنون شعره بميزان النقد العادل ، بمعنى أنهم سيزنون حسناته وسيئاته ، ولايغمطونه حقه.

وهذا الفريق ذكر المحاسن والعيوب ، ووقف محللا ومعللا لما يصدر من أحكام – في كثير من الأحيان – فمثل بحق روح النقد المنهجي النزيه الذي يعد قمة النقد العربي في القرن الرابع الهجري ، ومنهم الآمدي ، والقاضي الجرجاني.

١ – **أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الآمدي (ت ٣٧٠ أو ٣٧١هـ).**

يعد هذا الناقد من عمالقة النقد العربي ؛ وذلك لمؤلفاته النقدية ، وأشهرها كتاب "الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري" وغيرها من الكتب التي أشار إليها أصحاب التراجم.

وقد ألف الآمدي للانتصار لأبي تمام كتاباً بعنوان "الرد على ابن عمار فيما خطأ فيه أبا تمام" ، وأشار إليه "ياقوت" في معجم الأدباء[2].

---

(١) انظر : تاريخ الأدب العربي – العصر العباسي الأول ، د. شوقي ضيف ص ٣١٨ومابعدها.

(٢) انظر : معجم الأدباء ، لياقوت الحموي ٨٦/١ – دار المأمون بمصر.

كما ألف كتابه القيم "الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري" للغرض نفسه ، ويقع الكتاب في ثلاثة أجزاء كبيرة ، محققة في أربعة مجلدات ، حقق الأستاذ : السيد أحمد صقر ، منه جزءين في مجلدين (الأول والثاني) وحقق الدكتور عبد الله حمد محارب الجزء الثالث في مجلدين ، وسنعتمد على الكتاب كله في هذه الدراسة بعون الله.

ويبين الآمدي في مقدمة كتابه السبب الذي ألف من أجله كتابه ، وهو الموازنة بين الشاعرين موازنة نقدية في المعاني المشتركة بينهما ، غير أنه يترك الحكم للقاريء ، فلم يبت بحكم في هذا الشأن[1].

واختلف النقاد في الزمن الذي ألف الآمدي كتابه فيه ، فيرى الدكتور مندور أن "الآمدي لم يكتب كتابه أيام عنف الخصومة بين أنصار أبي تمام والبحتري ، وذلك لأن أبا تمام توفي ٢٣١هـ ، والبحتري سنة ٢٨٤هـ .... أما الآمدي توفي سنة ٣٧١هـ فقد جاء بعد أن كان الزمان قد هدأ من حدة الخصومة ، وكان الأدباء قد أخذوا في الاقتتال حول رجل هو المتنبي"[2].

بينما يرى الدكتور عبد الله محارب أن "الآمدي ألف الموازنة بعد ظهور كتاب أخبار أبي تمام ، والموازنة كتاب ضخم فيه من العلم الغزير ما يدل على نضج واتساع الثقافة العقلية التي أبدعته ، ولا يستبعد أن يكون قد استغرق تأليفه سنوات عدة ، ربما كان من بداية ذلك الاهتمام من الآمدي بتلقط شعر الطائيين سنة ٣١٧هـ"[3].

---

(١) انظر : الموازنة ١/٣ : ٥.

(٢) النقد المنهجي عند العرب ، د. محمد مندور ص ١٠٣.

(٣) الموازنة جـ٣ القسم الأول ص ٣٠.

وإني أرجح هذا الرأي؛ لإخبار الآمدي نفسه أنه بدأ بتلقط شعر الطائيين سنة ٣١٧هـ ، فمن المعقول أن يكون بدأ بتجميع نواة الكتاب منذ هذا التاريخ ، وعندما اختمرت الأفكار في ذهنه ، بعد أن تم له النضج العقلي ، أخذ في صياغة الكتاب وتدوينه.

واختلف النقاد في موقف الآمدي من أبي تمام ، وانقسموا فريقين ، فريقاً يرى تعصبه للبحتري ضد أبي تمام ، وآخر يرى إنصاف أبي تمام والبحتري وإعطاء كل شاعر ما يستحق من النقد. ولا نريد أن نطيل الحديث في هذا الشأن ، وإنما الذي يعنينا هو خلاصة آراء النقاد في موقف الآمدي من شاعرنا أبي تمام.

فمن النقاد من يرى تعصبه للبحتري ضد أبي تمام في مواطن كثيرة من كتابه ؛ لأنه كان يميل لشعر البحتري ومذهبه فيه ؛ لمحافظته على عمود الشعر العربي ، وابتعاد شعره عن التكلف والغرابة والصنعة الممقوتة – وهذا ما رُمي به أبو تمام وحورب من أجله.

فمن النقاد القدماء ، الشريف المرتضى ، الذي رمى الآمدي بالعصبية وتسفيه الرأي ، ومنهم ابن سنان الخفاجي – لكن دون التعدي إلى ذم الرجل[١]. ومنهم الأستاذ أحمد أمين الذي رأى أن "الآمدي ألف كتاب "الموازنة بين أبي تمام والبحتري" يتعصب فيه للبحتري من وراء حجاب. وألف الصولي هذا الكتاب يتعصب فيه لأبي تمام"[٢].

وفهم الدكتور مندور من هذه العبارة ، أن الأستاذ أحمد أمين يساوي بين تعصب الآمدي للبحتري وتعصب الصولي لأبي تمام – والذي أراه أن الأمر مختلف فتعصب الصولي لأبي تمام واضح جداً ، وهو يعلن ذلك صراحة ؛ فقد رمى أعداء

(١) انظر : الموازنة جـ٣ القسم الأول ص ٦٨.

(٢) مقدمة أخبار أبي تمام ، بقلم أحمد أمين ص أ أ هـ.

أبي تمام بالجهل وسوء الفهم ، وعدم تقدير الرجل ، ودافع عنه بكل حجة، وركب فى ذلك كل سبيل.

أما تعصب الآمدي للبحتري فهو غير واضح ؛ فلم يعلن ذلك صراحة ، وإنما كان يرميه بالتقصير ، ويغمزه بين الحين والحين ، بينما يقلل من هذه الغمزات الموجهة للبحتري – ولايعفيه من هذه التهمة إشادته بأبي تمام في بعض المواطن من كتابه.

ويعلن الدكتور إحسان عباس تعصب الآمدي للبحتري وتحامله على أبي تمام ، ويبرر ذلك بأن "الآمدي كان يؤثر طريقة البحتري ويميل إليها ومن أجل ذلك جعلها "عمود الشعر" ونسبها إلى الأوائل وصرح بأنه من هذا الفريق دون مواربة"[1]. ثم يصرح برأيه في هذه العصبية قائلاً: "ونحن نقول : إن من كان يميل إلى طريقة البحتري ثم يتكلف الموازنة بينها وبين طريقة أبي تمام فإنه قادر على أن يظلم أبا تمام ويتعصب عليه"[2].

ويرى الدكتور عبد الرحمن عبد الحميد ، أن الآمدي تعصب للبحتري ، وسانده في موازنته ؛ لأنه "وقف بجانب البحتري فوصفه بحسن الديباجة ورونق الكلام ، وما يجري فيه من حلاوة وعذوبة قائلاً : إن البلاغة إنما هي إصابة المعنى وإدراك الغرض بألفاظ سهلة عذبة مستعملة سليمة من التكلف.. فإن اتفق مع هذا المعنى اللطيف ، والحكمة الغريبة ، والأدب الحسن – فذلك زائد في بهاء الكلام ، وإن لم يتفق فقد قام الكلام بنفسه ، واستغنى عما سواه"[3].

---

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، د. إحسان عباس ص ١٦٢ ، ١٦٣.

(٢) المرجع السابق ص ١٦٤.

(٣) ملامح النقد العربي في القديم ، د. عبد الرحمن عبد الحميد علي جـ١ ص ١٧٣ – مطبعة الأمانة – مصر – الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م.

وفي مواجهة هذا الفريق من النقاد ، نرى فريقاً آخر ، يثني على الآمدي وكتابه الموازنة ، ويبرىء ساحة الآمدي من تهمة التعصب للبحتري. فضياء الدين ابن الأثير (ت ٦٣٧هـ) يذكر الآمدي في كتابه "المثل السائر" في مواضع كثيرة ، ويثني على كتابه "الموازنة" للآمدي و "سر الفصاحة" للخفاجي ، ويرى أن الموازنة أجمع أصولاً ، وأجدى محصولاً [(١)].

ويقف الدكتور مندور مدافعاً عن الآمدي دفاعاً عنيفاً ، ويحاول دفع كل الحجج التي ترميه بالتعصب للبحتري ، ولكنه يتحامل على أبي تمام ، ويرمي شعره بكل عيب ، يقول : "وبالرجوع إلى كتاب "الموازنة" نفسه نجد أن المؤلف لم يتعصب للبحتري ، كما لم يتعصب ضد أبي تمام ، وإنما هذه تهمة اتهمه بها النقاد اللاحقون عندما فسد الذوق وغلبت الصنعة والتكلف على الأدب العربي ، ونظر هؤلاء الأدباء المتأخرون في بعض انتقادات الآمدي لسخافات أبي تمام "ووساوسه" ولم يوافقوا على تلك الانتقادات لمرض أذواقهم ، فقالوا إن الرجل متعصب ضد أبي تمام ، وهذا ظلم يجب أن نصلحه"[(٢)].

ويمتدح الدكتور مندور ، كتاب "الموازنة" ، ويرى أنه أفضل كتب النقد منهجاً وعلماً ونزاهة ؛ لأن الآمدي جاء "بعد تراخي الزمن فوجد عدة رسائل في التعصب لهذا الشاعر أو ذاك ، كما وجد ديوانيهما قد جمعا ، وتعددت منهما النسخ قديمة وحديثة. ونظر في كل تلك الكتب فوجد فيها إسرافاً في الأحكام وعدم دراسة تحقيقية وضعفاً في التحليل أو قصوراً ، فتناول الخصومة بمنهج علمي أشبه ما يكون بمناهجنا اليوم بحيث نعتقد أن هذا الكتاب خير ما نستطيع أن نضعه بين أيدي الدارسين كمثل يحتذى للمنهج الصحيح"(٣).

---

(١) انظر : الموازنة جـ٣ القسم الأول ص ٧٠.

(٢) ، (٣) النقد المنهجي عند العرب ، د. محمد مندور ص ١٠٢ ، ١٠٣.

ونحن لا نقول في المنهج شيئاً ، فهو منهج جديد في زمنه في تاريخ نقدنا العربي دقة وعمقاً ، ولكن الذي نراه هو تعصب الآمدي الخفي للبحتري ، والميل إلى طريقته التي صرح بحبه لها واقتفائها في أول كتابه.

ويرمي الدكتور مندور ، نقاد الأدب بالقصور في الحكم ، لأن "التهمة لم تقم بعد على استقصاء لأقواله (الآمدي) ، ولا تصدر عن نظر شامل في كل ما قاله ، وإلا لرأوا أنه قد أعجب بأبي تمام في غير موضع ودافع عنه أكثر من مرة ، كما أنه لم يحجم عن أن ينقد البحتري نقداً مراً كلما وجد فيه مغمزاً وأن يفضل عليه أبا تمام"(١).

ولكن إعجاب الدكتور مندور بالآمدي ، جعله يتحامل على أبي تمام ، ويبريء الآمدي من أدنى شبهة يمكن أن تنسب إليه في التعصب على أبي تمام ، وهذا غير صحيح ، لأن الآمدي كان يتعصب للبحتري من آن لآخر ، ويغمز أبا تمام غمزاً مراً بين الحين والحين ، وكثيراً ما يثني على البحتري ، ويكتفي بالإشارة لشعر أبي تمام في كثير من المواطن التي وازن بينهما فيها.

ويفرق الدكتور مندور ، بين التعصب والذوق ، ويحاول التلاعب بالألفاظ ، فيرى أن التعصب شيء ، والذوق والإحساس شيء آخر ، والآمدي صاحب ذوق وحس مرهف ، وعلم واسع ، فيرى أن "الآمدي كان له ذوقه الخاص في الشعر ، وهذه مسألة غير التعصب ، وإنه لمن العبث أن ندعو النقاد إلى أن يكونوا علماء فيتجردوا عن كل ذوق شخصي ، وذلك لأنه ليس في الأدب قواعد عامة نستطيع أن نطبقها آلياً .... وإنما هناك ذوق هو أساس كل نقد أدبي .... وهو إذن يفضل الشعر المطبوع. ولكن ذلك لم يمنعه من أن يقر بما وفق إليه أبو تمام من إصابة معنى أو

(١) النقد المنهجي عند العرب د. محمد مندور ص ١٠٣.

عبارة ، بل لم يدعه إلى الجهر بأي الشاعرين أفضل إطلاقاً. وقد رفض صراحة أن يقول بشيء كهذا"[1].

وإني لأعجب كيف يحكم الناقد ذوقه بين شاعرين وذوقه يتفق مع أحدهما؟ وكل ما أعجب به من شعر أبي تمام ، إنما هو يطابق ذوقه البحتري المذهب.

وخلاصة القول أن الدكتور مندور ، معجب بالآمدي متحامل على أبي تمام، ويتضح هذا الحكم من خلال نقد الدكتور مندور للآمدي ؛ لأنه وافق الصولي في بعض نقداته لأبي تمام ، يقول : "ومن غريب الأمر أن يأخذ الناقد الصادق الذوق الآمدي برأي الصولي في هذا البيت ، وإن لم يورد اسم الصولي بل نسب القول إلى "محتج لأبي تمام" فيقول : وأما قوله: لا تسقني ماء الملاء ..(البيت) .. ونحن نلاحظ أن الآمدي وإن يكن قد قبل استعارة أبي تمام ، كما أخذ فيما يبدو ببعض حجج الصولي ، فإنه يعد أصدق نظراً من الصولي وأدق نقداً "[2].

فالدكتور مندور ، أحب الآمدي ومنهجه ومن وافقه من الشعراء ، وكره الصولي وأبا تمام وتعصب عليهما ، وغضب من صاحبه الآمدي ؛ لموافقته رأي الصولي في موقف نقدي – وكأنه كان يريد منه أن يعادي أبا تمام ورفاقه أبداً .

ومن المفيد أن نختم الحديث عن موقف الآمدي من أبي تمام ، برأي الأستاذ: طه إبراهيم ، لأهميته ؛ لوقوفه موقفاً وسطاً بين النقاد ، فيرى أن هذه المسألة ، أي مسألة تعصب الآمدي على أبي تمام قد شاعت عند النقاد ، وأن "النقاد القدماء مجمعون على ذلك ، ومتفقون على أن في لهجة الآمدي تحاملاً شديداً على أبي تمام، وازدراء بشعره ، واستخفافاً بهذا الشعر ، وتهكماً مراً ، ولذعاً مؤلماً ،

---

(١) المرجع السابق ص ١٤٨ ، ١٤٩.

(٢) النقد المنهجي عند العرب ، د. محمد مندور ص ٩٦ ، ٩٧.

وعلى أن الآمدي بحتري الهوى ، لم يستجب الله دعاءه في أن يجاهد النفس ، ويتجنب الغرض"[1].

ويخلص الأستاذ : طه إبراهيم ، إلى نتيجة مهمة ، وهي أن الآمدي كان من النقاد الذين جنحوا إلى عناصر خاصة في الشعر كالعذوبة ، والرقة ، والسلاسة ، والانسجام – وهذه الخواص تعبر عنها طبيعة البحتري ، فالآمدي إذن بحتري الذوق والهوى ، ولايمكن للناقد أن يتخلص من نفسه وذوقه ، غير أن الآمدي قد أنصف أبا تمام في بعض المواطن المهمة ؛ لذلك يجب أن نتردد في الحكم بتعصب الآمدي للبحتري وتحامله على أبي تمام ؛ لأن هذا الحكم فيه بعض الجور[2].

نحن نفهم من هذا الكلام أن الآمدي لم يتخلص تماماً من هواه ونفسه ، ولذا نحكم عليه مطمئنين بأنه مال بذوقه وهواه للبحتري ، وغض طرفه وذوقه كثيراً عن أبي تمام.

٢ – **القاضي الجرجاني ، علي بن عبد العزيز الجرجاني (ت ٣٩٢هـ).**

قد يظن البعض أن الجرجاني بعيد عن الخصومة التي دارت حول أبي تمام؛ لدخول الجرجاني في الخصومة الدائرة حول المتنبي ، ولكن الواقع يثبت لنا خلاف ذلك ، فالجرجاني لم يستطع الابتعاد عن الخصومة الدائرة حول أبي تمام – والتحامل عليه – وهو يدافع عن شاعره المفضل أبي الطيب المتنبي.

والمعروف أن الجرجاني قام بتأليف كتابه الشهير "الوساطة بين المتنبي وخصومه" ؛ للوقوف بين المتعصبين له والمتحاملين عليه ، وهو في ذلك متأثر بالآمدي في الدافع للتأليف ، "فالعنوان يدل على طلب العدل وتوخي الإنصاف وهي الفكرة التي بدأ بها الآمدي كتابه .... وإذا كان الآمدي حاول جهده أن يكون

---

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، طه أحمد إبراهيم ص ١٦٦.

(٢) انظر : تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، طه إبراهيم ص ١٦٧ ، ١٦٨.

منصفاً- على الرغم من تلك الهنات التي ظهرت في تقريعه لأبي تمام عندما كان يخرج على طريقة العرب ، ويفارق عمود الشعر - فإن القاضي الجرجاني تعصب لصاحبه "المتنبي" في مواجهة خصومه"[1].

وبالنظر في كتاب "الوساطة" يتبين لنا أن الجرجاني سلك جميع السبل ، واتخذ كل الوسائل ؛ للدفاع عن صاحبه "المتنبي" وتعصب له تعصباً واضحاً ، يبدو لمن اطلع على الوساطة من أول وهلة.

ومما يدل على تعصب الجرجاني للمتنبي ، الطريقة التي سلكها في دفاعه عن المتنبي ، فهي لم تكن طريقة نقدية منصفة ، وإنما كانت دفاعاً أكثر منها نقداً وبياناً للأخطاء ، وفي مقابل هذا نراه يعرض لعيوب الآخرين ليلتمس العذر لصاحبه بطمس محاسن غيره.

وقد "جعل دفاعه عن المتنبي ألواناً ثلاثة:

أولها: مبدأ المقاصة ، أي وزن الحسنات بالسيئات لنرى أن جانب الحسنات أرجح.

وثانيها: أن أمثاله (المتنبي) من عظماء الشعراء المحدثين لهم مثل أغلاطه ، فلم ينفرد دونهم بالحساب والمؤاخذة وإغفال أمر الجيد من شعره.

وثالثهما : التماس الأعذار فيما أخطأ فيه إن كان له عذر ....

وإذا طبقنا رأي المؤلف في أن الشعر لايكون مقبولاً بالمحاجة والمخاصمة ، أدركنا أن هذا الشعر الذي دافع عنه القاضي لايمكن أن يرتفع إلى درجة الشعر الجيد"[2].

---

(١) الموازنة جـ٣ القسم الأول ص ٦٥.

(٢) نوابغ الفكر العربي (القاضي الجرجاني) ، د. أحمد أحمد بدوي ص ٧٤ - دار المعارف بمصر ١٩٦٤م.

ويبدو أسلوب التعصب للمتنبي عند الجرجاني ، في سرد عيوبه في صمت دون أن ينقدها أو يجرحها ، فنراه يورد "الأبيات التي عيبت على أبي الطيب دون أن يبين ما عيب فيها أو أخذ .... يسلم الجرجاني إذن بما في شعر المتنبي من عيوب ، ولكنه يردف ذلك بالروائع من ديوانه ، وإذا كانت الأولى تشغل من كتابه اثنتى عشرة صفحة ، فإن الثانية تشغل خمساً وخمسين"(١).

فإن لم يكن هذا هو التعصب للمتنبي ، فكيف يكون إذن ؟! وبعد أن يتعصب الجرجاني للمتنبي ، نراه يتحامل على المحدثين – وخصوصاً أبا تمام – فيستخدم أخطاءهم وأخطاءه سبيلاً لرفع شأن صاحبه ، وهو لا يدري أنه بهذا العمل يحط من شأن النوابغ ، وشأن صاحبه معهم ، لأن الأخطاء واحدة ، ولكنه دافع عن صاحبه بالاعتذار عنها بما هو أفضل منها في شعره.

ويقرر الجرجاني أن كل ما "وقع فيه أبو نواس وأبو تمام وغيرهما فقد وقع فيه المتنبي ففي شعره الجيد والرديء ، وفي شعره أخطاء ، وضعف ، وركاكة ، ولكن ليس من شرائط النصفة أن تنعي على أبي الطيب بيتاً شذ وكلمة بدرت وقصيدة لم يسعده فيها طبعه ولفظة قصرت عنها عنايته ، وتنسى محاسنه وقد ملأت الأسماع ، وروائعه وقد بهرت العقول .... وبالتأمل في كلام الجرجاني السابق نجد أنه حاول أن ينطق المتنبي من خلال أخطاء السابقين"(٢).

وكان الأجدر بالجرجاني أن يفعل هذا مع أبي تمام ورفاقه من المحدثين ، فيكثر من إيراد الحسنات ، ويعتذر عن الهفوات ، لا أن يكثر من العثرات معتذراً بها عن أخطاء صاحبه !.

---

(١) النقد المنهجي عند العرب ، د. محمد مندور ص ٢٨٢ ، ٢٨٣.

(٢) ملامح النقد العربي فى القديم ، د. عبد الرحمن عبد الحميد جـ١ ص ١٨٣.

ويعد الجرجاني تلميذاً للآمدي ، فنراه يردد آراءه ، وينحو نحوه في تفضيل عمود الشعر العربي على غيره ؛ ولهذا فهو يتصدى لأبي تمام من وراء حجاب ، ينقده ، ويبرز سيئاته دون أن يدافع عنها كما فعل مع صاحبه المتنبي. وهو لا يناقش أخطاء المتنبي ، بل يدافع عنها ويعتذر لصاحبها ، إلا أخطاء أبي تمام ، فيناقشها كثيراً ، مردداً آراء الآمدي فيها. ولهذا السبب نستطيع أن "تلحق الجرجاني كأديب ناقد بالآمدي ، فكلاهما يفضل الشعر المطبوع على الصناعة ، وإن يكن الآمدي أميل من الجرجاني إلى إعزاز القديم وتحكيمه في الشعر الحديث"[1].

وقد اختلفت نظرة النقاد في الجرجاني كناقد ، فمنهم من يراه صدى للآمدي، ومنهم من يراه تلميذاً محسناً له ، ومنهم من يراه خاتمة النقاد المنصفين ، وخلاصة الرأي فيه ، أنه "خاتمة النقد المعتمد على الذوق إلى جانب اعتماده على القواعد والأصول .... ويكفي القاضي الجرجاني أنه اطلع على الآراء النقدية السابقة كآراء ابن سلام في أثر البيئة وصناعة الشعر ، وموقف ابن قتيبة من القديم والحديث ، وآراء الآمدي في عمود الشعر والسرقات ثم صاغها من جديد واستغلها في الدفاع عن المتنبي"[2].

ويوازن الدكتور إحسان عباس بين الآمدي والجرجاني موازنة دقيقة ، ويرى أن الآمدي "حاول أن يكون منصفاً في الحكومة بين البحتري وأبي تمام فعجز عن ذلك رغماً عنه ، وما كان الآمدي إلا معلماً للجرجاني ، فنجح الآمدي نظرياً فقط بينما نجح تلميذه في منهجه نظرياً وعملياً. أما في الآراء والنظرات النقدية فإن الجرجاني لم يأت بشيء جديد ، وإنما التقت عنده أكثر الآراء والنظرات السابقة

---

(١) النقد المنهجي عند العرب ، د. محمد مندور ص ٢٦١.

(٢) اتجاهات النقد الأدبي ، د. أحمد مطلوب ص ٢٣١ ، ٢٣٢.

فأحسن استغلالها في التطبيق والعرض"[1].

ولهذه الأسباب مجتمعة ، أرى أن الجرجاني كان متعصباً على أبي تمام في وساطته ، فزج به في لجة الصراع الدائر بين المتنبي وخصومه ، وجعله رمزاً للمبدعين المخطئين ، إلا أنه أكثر من غمزه والحط من قدره.

وتبدو لهجة التحامل على أبي تمام في عدة أمور ، نجملها فيما يأتي:

١- اتباع الجرجاني طريقة البحتري في فهم الشعر وتذوقه واستحسان شعر البحتري ؛ لعذوبته ، وتهجين شعر أبي تمام لخروجه على عمود الشعر – مع علمه بأن المتنبي كان تلميذاً له في صدر حياته.

٢- إكثاره من ذكر عيوب أبي تمام ، وترديد كلام السابقين فيه وعدم الدفاع عنه ، في حين أنه يدافع عن المتنبي عند ذكر عيوبه بذكر حسناته أو السكوت عن العيوب. فالجرجاني يكثر من عيوب أبي تمام "وهو يفعل ذلك تمهيداً لالتماس العذر لأبي الطيب فيما سقط فيه بعض شعره من تكلف وإسراف ، والجرجاني نفسه قد فطن إلى أن المتنبي قد تتلمذ لأبي تمام في صدر حياته"[2].

٣- محاولة الاعتذار عن ذكر عيوب أبي تمام بقصد الاعتراف بأخطاء كل الشعراء ، والحقيقة أنه يتعقب أبا تمام – خاصة – للغض من شعره ، وإضعاف قدرته الشعرية. فهو يأخذ في إيراد "الجيد من شعر أبي تمام ثم السخيف قائلاً : إنه لاتكاد تسلم قصيدة من شعره من أبيات ضعيفة وأخرى غثة، لاسيما إذا طلب البديع وتتبع العويص"[3].

---

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، د. إحسان عباس ص ٣١٦ ، ٣١٧.

(٢) النقد المنهجي عند العرب ، د. محمد مندور ص ٢٦٠.

(٣) الوساطة ، للقاضي الجرجاني ص ٧٠.

ونراه يتتبع آراء الآمدي في كثير من أحكامه ، فبالنظر في "الأمثلة التي يوردها نجد أنه قد أخذ عن الآمدي الكثير منها وإن لم يذكر ذلك ، بل قد نراه يرد على صاحب الموازنة في تفسير لمعنى "الأيم" .... وهو يرد دون أن يورد اسم الآمدي وإنما يصفه (ببعض من اعترض على أبي تمام) وهذا يقطع بأن الجرجاني قد اعتمد على الموازنة في نقده لأبي تمام. ومع ذلك فقد يتفق للجرجاني أن ينقد بعض أبيات أبي تمام وفقاً لمنهجه هو ، المنهج العقلي الذي يخالف منهج الآمدي الفني الخالص"[1].

٤- الإقلال من ذكر محاسن أبي تمام ، في الوقت الذي يكثر فيه من محاسن المتنبي - وخصوصاً عند ذكر معايبه - لأنه لم يستطع أن يدافع عن المتنبي بأكثر من السكون عن الأخطاء وذكر المحاسن التي ملأت ديوانه - كما يقول- أو بقوله : إن له في هذا الباب ما هو غاية في الجودة.

وعلى الرغم من دفاع الجرجاني عن المتنبي ، فإنه لم "يبين لنا موقع المتنبي بين الشعراء ، أهو يسير مثلاً على نهج الشعراء القدماء ، أم المحدثين؟ وأين موقفه من التيارات الأدبية في عصره ؟ أنجعله مع شعراء الطبع ، أم مع شعراء الصنعة ؟ أهو مثل بشار وأبي نواس في نهجهما أم كالبحتري وأبي تمام مثلاً ؟ في الحق أن الجرجاني لم يبرز لنا هذه الجوانب وكان عليه أن يوضحها أما أن يجعل نفسه قاضياً ومدافعاً عن المتنبي فقط ، وإبراز حسنات شعره في معرض الحديث عن الآخرين وإظهار حسناتهم أيضاً فهذا خروج عن دائرة النقد الحق القدير"[2].

---

(١) النقد المنهجي عند العرب ، د. محمد مندور ص ٢٨١.

(٢) ملامح النقد العربي في القديم ، د. عبد الرحمن عبد الحميد جـ١ ص ١٨٥ ، ١٨٦.

٥- ادعاء التعميم عند ذكر عيوب المحدثين ، بينما كان يقصد أبا تمام وحده ، بدليل أنه كان لا يذكر سوى أشعاره ، كقوله عن نقص الطبع في المحدثين ، وعدم استواء أشعارهم:

"فإن رام أحدهم الإغراب والاقتداء بمن مضى من القدماء لم يتمكن من بعض ما يرومه إلا بأشد تكلف ، وأتم تصنع ، ومع التكلف المقت ، وللنفس عن التصنع نفرة ، وفي مفارقة الطبع قلة الحلاوة وذهاب الرونق ، وإخلاق الديباجة. وربما كان ذلك سبباً لطمس المحاسن ؛ كالذي نجده كثيراً في شعر أبي تمام ، فإنه حاول من بين المحدثين الاقتداء بالأوائل في كثير من ألفاظه ، فحصل منه على توعير اللفظ فقبح في غير موضع من شعره"[١].

فالمتأمل في هذا النص يجد التحامل على أبي تمام بيناً ؛ فهو يذكر المحدثين، ثم يخص منهم بالذكر أبا تمام ، ويذكر جملة "كالذي نجده كثيراً في أشعار أبي تمام" ، ثم جملة "فقبح في غير موضع من شعره" ، ليشيع النفور من شعره ، ولينضم إلى حزب البحتريين.

وكأني بالجرجاني وقد أحس بالتحامل على أبي تمام ، فحاول أن يخفف من حدتها ليوهم المتلقي بالإنصاف والحيدة ، فقال : "ولست أقول هذا غضاً من أبي تمام، ولا تهجيناً لشعره ، ولا عصبية عليه لغيره. فكيف وأنا أدين بتفضيله وتقديمه، وأنتحل موالاته وتعظيمه ، وأراه قبلة أصحاب المعاني ، وقدوة أهل البديع لكن ما سمعتني أشترطه في صدر هذه الرسالة أنه يحظر إلا اتباع الحق وتحري العدل والحكم به لي أو عليّ. وما عدوت في هذا الفصل قضية أبي تمام ، ولا خرجت عن شرطه"[٢].

---

(١) الوساطة ص ١٩.

(٢) الوساطة ص ١٩ ، ٢٠.

وحتى وهو يحاول إنصافه ، يلهج بالتحامل عليه ، فيصفه بصفات المذهب الذي اتخذه أبو تمام وهاجمه النقاد من أجله ، "فهو قبلة أصحاب المعاني" ، وهو "قدوة أهل البديع" – ثم يجرده من بقية أدوات الشاعر ، من طبع ، وسلاسة ، وعذوبة ؛ لأن الجرجاني يسير على نهج الآمدي في تفضيل عمود الشعر العربي.

وبعد ذلك يأخذ الجرجاني في هذا الفصل في سرد عيوب أبي تمام ، ثم لا ينساه بين الحين والحين ، فكثيراً ما يدعم آراءه بأدلة من شعر أبي تمام المعيب من النقاد السابقين. ويبلغ تحامل الجرجاني على أبي تمام ذروته حين يصف شعره كله بالركاكة والضعف والغثاثة ، وكأن شعر الرجل رديء في جملته ، فيقول : "وما تكاد قصيدة من شعره تسلم من أبيات ضعيفة ؛ وأخرى غثة ، لاسيما إذا طلب البديع وتتبع العويص"[1].

ونراه بعد ذلك يكثر من سرد أخطاء أبي تمام ، وينقدها نقداً موجعاً ، ولا يدافع عنها – ثم يتبع ذلك بذكر بعض عيوب المتنبي ويسردها سرداً دون التعليق عليها ، ليشفعها بذكر محاسنه وروائعه ، وهو لم "يناقش العيوب التي أخذها النقاد على الشاعر (المتنبي) ولكنه يعتذر عما جاء في شعره من أخطاء ، وهي موجودة عند كل الشعراء في القديم والحديث"[2].

ويحاول الجرجاني أن يتنصل من تهمة التحامل على أبي تمام ، ولكنه لم يستطع الإفلات من الوقوع فيها ، فنراه يذكر شعره المعيب ، ويكثر منه ، ويذكر الجيد ، ويقلل منه ، ثم "ينص بصريح العبارة على أنه لم ينقده لنفسه بل تمهيداً للدفاع عن المتنبي ، كما يعلل اختياره لأبي نواس وأبي تمام بأن أحدهما سيد

---

(١) المرجع نفسه ص ٧٠.

(٢) ملامح النقد الأدبي عند العرب ، د. عبد الرحمن عبد الحميد جـ١ ص ١٨٥.

المطبوعين ، والآخر إمام أهل الصنعة. وإذا كان شعرهما لا يخلو من سقط وسقط كثير ، فكيف يلام المتنبي لما جاء في بعض شعره من عيوب"[1].

وليس هذا بمنطق القاضي الناقد ؛ إذ كيف يورد عيوب شاعر ، وينقده بعنف؛ ليعتذر بذلك عن عيوب الآخرين ؟!.

ولم يكتف الجرجاني بهذا التحامل ، فعاد وذكر أن ما أغفله أكثر مما ذكره من تلك العيوب ، يقول : "ثم أعود إلى نسق الكتاب وأكتفي بما قدمته من هفوات أبي تمام ، وإن كان ما أغفلته أضعاف ما أثبته ، إذ البغية فيه الاعتذار لأبي الطيب لا النعي على أبي تمام"[2].

ولاندري مدى هذه الأضعاف المغفلة من "هفوات" أبي تمام ؟ والعجيب أنه يسميها "هفوات" بعد أن أسقطه ، وحط من شاعريته وشكك في جودة شعره وكفاءته؛ لهذا أرى أن الجرجاني كان متحاملاً على أبي تمام ، ومهما حاول المدافعون عنه تبرئة ساحته ، فلن يغفر له هذا التجني على شاعر عبقري فذ ، كل عيبه أنه اتخذ لنفسه مذهباً يتفق وقدراته الذهنية وإبداعاته الفنية الفسيحة.

والواضح أن الجرجاني قد اختار لنفسه طريقاً محدداً في "الوساطة" وهدفه الأسمى فيه الانتصار للمتنبي بشتى السبل واستخدام جميع الحيل. وعلى الرغم من ذلك ، فنحن لا نغض من شأن الجرجاني ، فهو القاضي والناقد الحصيف ، والأديب الأريب ، وهو صاحب لمحات نقدية لا تنكر ، ومحاسن لا تنسى ، وإنما كنا نتوقع منه تحري العدل والإنصاف للمتنبي وغيره ؛ ليبدو عمله النقدي في أبهى صورة ، ولكنه الذوق ، وتحكم الهوى.

---

(١) النقد المنهجي عند العرب ، د. محمد مندور ص ٢٨٢.

(٢) الوساطة ص ٧٥.

الفصل الثالث

مآخذ النقاد على أبي تمام

ظهر أبو تمام بفنه الجديد ، ومذهبه الشعري الفريد ، فبهر الأنظار بشعره ، ولفت إليه النقاد ؛ فأخذوا يزنون شعره بموازين ومعايير متباينة ، فالمتمسكون بالقديم رأوا فيه وفي مذهبه الخروج على العرف والقيم الشعرية الموروثة ؛ فرفضوا شعره ، وعابوا كثيراً منه ، وطعنوا في قائله ، وتعسفوا في ذلك تسعفاً ملحوظاً.

والمجددون منهم رأوا فيه الابتكار والتجديد ؛ فهللوا له ، ودافعوا عن شعره وعن مذهبه الفني المبتكر ؛ فهو عندهم شاعر الفكرة ، والمعنى المخترع والفلسفة البديعة.

وقد وجه نقاد القرن الثالث ، ومن بعدهم نقاد القرن الرابع إلى أبي تمام عدة مآخذ ، من أهمها خروجه على عمود الشعر العربي القديم ، وجنوحه إلى التجديد الذي لم يضف جديداً إلى الشعر العربي ، بل قربه من السخف والهذر والإحالة.

ويكاد يجمع النقاد على أخطاء أبي تمام التي تنحصر في "سرقته لبعض المعاني ، وتعسفه في بعض الاستعارات وبعض ألوان البديع ، وفي ابتداءاته المستهجنة ، وفي استعماله الألفاظ الوحشية والغريبة ، وفي استغلاق أو غموض بعض معانيه"(1).

وكان لأنصار القديم ذوق خاص ، ومنحى محدد في تفضيل الشعر ، حيث كانوا يكرهون النغمة الخطابية ، والصياغة النثرية ، كما ينفرون من الإغراق والصنعة المسرفة التي عرفت بالبديع"(2). وهذا ما حدا بهم أن يتمسكوا بالقديم في شكله ، ومضمونه ، وأن يعدوا الخروج عليه خروجاً على ما أسموه بعمود الشعر العربي.

---

(1) حماسة أبي تمام وشروحها ، د. عبد الله عسيلان ص ١٧.

(2) النقد المنهجي عن العرب ، د. محمد مندور ص ٨٩.

ولم يتفق النقاد في تحديد معالم هذا العمود الشعري ، وإنما كان لكل منهم ذوقه ، وأسسه ومعاييره التي يفاضل بها بين الشعراء ، فالآمدي لم يضع لنا "قواعد هذا العمود في مقدمة كتابه ليسير عليها وإنما أشار إليها في أثناء نقده وتعليقه على الأبيات. وتتلخص أسسه في هذا الموضوع ، بأن يكون المعنى شريفاً صحيحاً ، واللفظ جزلا ، والوصف مصيباً ، والتشبيه مقارباً ، وأجزاء النظم ملتحمة متلائمة ، والاستعارة متناسبة ، واللفظ مشاكلاً للمعنى"[١].

ومن هنا جعل الآمدي خروج الشاعر عن هذه الحدود خروجاً على الذوق والأصول العامة للشعر ، فقال : "وإذا كانت طريقة الشاعر غير هذه الطريقة (أي طريقة البحتري) وكانت عبارته مقتصرة عنها ولسانه غير مدرك لها حتى يعتمد دقيق المعاني من فلسفة يونان أو حكمة الهند أو أدب الفرس ويكون أكثر ما يورده منها بألفاظ متعسفة ونسج مضطرب وإن اتفق في تضاعيف ذلك شيء من صحيح الوصف وسليم النظر قلنا له : قد جئت بحكمة وفلسفة ومعان لطيفة حسنة فإن شئت دعوناك حكيماً أو سميناك فيلسوفاً ولكن لا نسميك شاعراً ولا ندعوك بليغاً ؛ لأن طريقتك ليست على طريقة العرب ولا على مذاهبهم"[٢].

فواضح من كلام الآمدي ، أنه يؤثر طريقة القدماء ، وهي طريقة البحتري التي ارتضاها ، ومال إليها "ومن أجل ذلك جعلها "عمود الشعر" ونسبها إلى الأوائل وصرح بأنه من هذا الفريق دون مواربة"[٣]. فقال في هذا : "والمطبوعون وأهل البلاغة لا يكون الفضل عندهم من جهة استقصاء المعاني والإغراق في الوصف ،

---

(١) اتجاهات النقد الأدبي في القرن الرابع الهجري ، د. أحمد مطلوب ص ٢١٨.

(٢) الموازنة ١/٤٠١.

(٣) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، د. إحسان عباس ص ١٦٢.

وإنما يكون الفضل عندهم في الإلمام بالمعاني وأخذ العفو منها كما كانت الأوائل تفعل مع جودة السبك وقرب المأتى ، والقول في هذا قولهم وإليه أذهب"[1].

أما الجرجاني ، فقد حدد عمود الشعر ، بوضعه عدة أسس للشاعر ، أوجب عليه الالتزام بها ، وجعل الخروج عليها خروجاً على عمود الشعر ، فقال : "وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب ، وشبه فقارب ، وبده فأغزر ، ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته ؛ ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة ، ولا تحفل بالإبداع (البديع) والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر ، ونظام القريض"[2].

ويرى الدكتور إحسان عباس أن القاضي الجرجاني مدين للآمدي بدين كبير؛ لأنه "قد تمثل آراءه بحذق وذكاء ، دون أن يذكر الآمدي مرة واحدة : فقد رأينا كيف حام الآمدي حول ما أسماه "عمود الشعر" وحدده في الأغلب بالصفات السلبية .... وقد كان الآمدي صريحاً في موقفه حين وجد أبا تمام قد خرج في محاولته على عمود الشعر ، أما الجرجاني فلم يصرح عن رأيه في صلة المتنبي بعمود الشعر. غير أنك تلمح من طرف خفي أن الشروط الستة التي وضعها تنطبق على المتنبي تماماً ، فإذا طالعك بمعنى مستكره أو وصف غير مصيب أو استعارة مفرطة دعاك إلى أن لا تحكم ببيت على أبيات. وبشاذ مفرد على مستو غالب"[3].

ولكن – مع الأسف – لم يفعل هذا مع أبي تمام ، وإنما أخذ في انتقاده بعنف، وحاول أن يسقط أكثر شعره ، مما يجعلنا نكرر القول بتحامله على أبي تمام

---

(١) الموازنة ٤٩٦/١.

(٢) الوساطة ص ٣٣ ، ٣٤.

(٣) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، د. إحسان عباس ص ٣٢٢.

وترديد كلام السابقين فيه دون نظر بعين الحق والعدل في كثير من انتقاداته - كما سنبينه في الفصل التالي إن شاء الله تعالى.

وجاء المرزوقي ، فحدد أسس هذا العمود ، ووضحه ، فقال : "إنهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته والإصابة في الوصف - ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة كثرت سوائر الأمثال وشوارد الأبيات - والمقاربة في التشبيه والتحام أجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن ومناسبة المستعار منه للمستعار له ومشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائها للقافية حتى لا منافرة بينهما. فهذه سبعة أبواب هي عمود الشعر"(١).

هذا هو أهم وأكبر انتقاد وجه لأبي تمام من أنصار القديم ، فقد رأوا أنه خرج عن تقاليد العرب والموروث من الشعر العربي.

ومن المآخذ التي وجهت إلى أبي تمام ، إكثاره من البديع وإغراقه فيه ، فقد رأوا أنه "بالغ في سلوك هذه السبيل وأولع بها ، حتى ليندر أن يخلو بيت له منه ، فأوقعه هذا الولوع في التعسف وارتكاب متن الشطط"(٢).

ويرى ابن المعتز أن أبا تمام لم يخترع هذا الفن (فن البديع) ، وإنما كان مقتفياً فيه أثر غيره ، حيث "كان مسلم بن الوليد صريع الغواني مداحاً محسناً مجيداً مفلقاً ، وهو أول من وسع البديع ، لأن بشار بن برد أول من جاء به - ثم جاء مسلم فحشا به شعره ، ثم جاء أبو تمام فأفرط فيه وتجاوز المقدار"(٣).

وقد شغلت هذه الظاهرة (ظاهرة البديع في شعر أبي تمام) كثيراً من النقاد والبلاغيين ، لأنها لا تمثل عندهم إلا "ضرباً من ضروب الصنعة يتوسل به إلى

---

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٩/١.

(٢) مقدمة الموازنة ، بقلم : الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد ٥/١ ، ٦.

(٣) طبقات الشعراء ، لابن المعتز ص ٢٣٥.

تجميل الصياغة وزخرفتها وتزيينها بما يتوافر فيها من العناصر الجميلة كالاستعارة والطباق والجناس ولذلك كان من أهم مآخذهم على أبي تمام أنه قد أكثر منها وأسرف فيها وبالغ حتى خرج عن عمود الشعر "(١).

غير أن الدكتور شوقي ضيف ، يعجب بفن البديع لدى أبي تمام ، ويرى فيه جمالاً وروعة ؛ لأن هذا المذهب قد انتهى عند أبي تمام "إلى الغاية التي كان يرنو إليها شعراء العصر العباسي من الزخرف والتنميق"(٢). ويرى أيضاً أن هذا الفن ، كان شيئاً جديداً "لايحسنه من الشعراء إلا من عاشوا في الحضارة ، وأخذوا أنفسهم بحظ من الثقافة والعقل العميق .... ومهما يكن فإن البحتري لم تكن عنده أسباب تؤهله لاستخدام التصنيع وأدواته على نحو ما انتهت إليه عند جماعة المصنعين ، فهو بدوي أعرابي رحل إلى المدينة وتحضر ، ولكن هذا التحضر لم يتغلغل في عقله ، ولم ينفذ إلى أعماق نفسه ، فلم يستطع أن يستخدم الثقافة في عمله ، كما أنه لم يستطع التعقيد في أدوات حرفته"(٣).

فالتعقيد في البديع إذن حرفة لا يتقنها إلا من أخذ نفسه بحظ وافر من الرقي والثقافة ، وقد كان أبو تمام أهلاً لهذا التعقيد الفلسفي ، الذي يستخدم في تزيين صوره أبهى أنواع الزينة ، وأدقها وأعقدها.

ومن المآخذ التي وجهت لأبي تمام ، غموض المعاني وتعقيدها والفلسفة فيها وخشونة الألفاظ ، وعد النقاد كل هذه الأمور من الخروج على عمود الشعر ، كما بينا سابقاً.

---

(١) شعر أبي تمام بين النقد القديم ورؤية النقد الجديد ، د. سعيد مصلح السريحي ص ٩ – النادي الأدبي الثقافي – جدة – المملكة العربية السعودية ط١ ١٤٠٤هـ – ١٩٨٣م.

(٢) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، د. شوقي ضيف ص ٢١٩.

(٣) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، د. شوقي ضيف ص ١٩٩.

ومن المآخذ أيضاً ، السرقات الشعرية ، فقد أخذوا عليه سرقته كثير من معاني الشعراء ، حتى إنهم أسرفوا في ذلك إسرافاً بيناً ، وقد "ألفت فيها كتب اعتمد عليها الآمدي في موازنته ، وأورد لنا أسماء مؤلفيها فهو يقول : "وجدت ابن أبي طاهر أخرج سرقات أبي تمام فأصاب في بعضها وأخطأ في البعض الآخر ، لأنه خلط الخاص من المعاني بالمشترك بين الناس"(١).

ووقف كثير من النقاد المحدثين موقف أسلافهم القدماء من شعر أبي تمام ، حتى إن "جل أحكامهم عليه لا تكاد تخرج عن أحكام القدماء من حيث أنه حرص كل الحرص على جمال الصنعة الفنية فتتبعها وأسرف في تتبعها حتى خرج إلى المحال ووقع في التكلف .... أما النقاد الذين تحروا تطبيق المنهج النقدي الحديث وما يعتد به من أصالة لغة الشعر في الكشف عن أبعاد الرؤية الشعرية عند أبي تمام فقد كانت المواضيع المحددة التي توجهت إليها دراساتهم لم تكن تسمح لهم ببحث الأبيات التي عيبت عليه بحثاً مستفيضاً يكشف ما تتمتع به من أصالة ويزيل ما يحيط بها من لبس وإشكال"(٢).

فأبو تمام إذن عبقري ملهم ، وشاعر فذ ، صدم القدماء بحضارته ، وعقله الكبير ، وشعره العقلي الحضري ؛ مما كان سبباً في توجيه اللوم إليه ، إما لعدم فهمهم شعره ، وإما لخوفهم من ضياع التقاليد الموروثة والشكل المعروف لديهم للشعر العربي الذي كسر قيوده أبو تمام ، وفتح للشعر مجالات متعددة مع حفاظه على اللغة وأصول العربية – وهذا ما سنتحدث عنه في الفصل التالي إن شاء الله تعالى.

---

(١) النقد المنهجي عند العرب ، د. محمد مندور ص ٩٢.

(٢) شعر أبي تمام ، د. سعيد مصلح ص ١١.

الفصل الرابع

نظرة الجرجاني لهفوات أبي تمام

نظر الجرجاني للشعر نظرة لا تختلف كثيراً عن نظرة الآمدي ، فقومه تقويماً عربياً قديماً خالصاً ، على أساس قربه من عمود الشعر الذي حدده بقوله : "وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب وشبه فقارب وبده فأغزر ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته ، ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة ولا تحفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض[1].

واعتمد الجرجاني في نظرته للشعر على هذا الأساس ، ولكنه لم يكتف بتلك المقاييس ، بل أضاف إليها علمه وذوقه العربي الخالص ، فجاءت أحكامه مطابقة لهذه المقاييس التي عرفت في عصره – ومن هنا نظر لشعر أبي تمام نظرة مختلفة، فرأى فيه الخروج على هذا العمود ، ومخالفة تلك المقاييس فتتبع أخطاءه في الجزء الأول من الوساطة التي تعرض فيه للحديث عن الشعر ، فذكر شعر أبي تمام وعدم انسجامه ، ومحاولته الإغراب وتقليد الأوائل ، فتكلف في شعره ، وقبح في تعبيره.

يقول الجرجاني في هذا :

"فإن رام أحدهم (أي من المحدثين) الإغراب والاقتداء بمن مضى من القدماء لم يتمكن من بعض ما يرومه إلا بأشد تكلف ، وأتم تصنع ؛ ومع التكلف المقت ، والنفس عن التصنع نفرة ، وفي مفارقة الطبع قلة الحلاوة وذهاب الرونق ، وإخلاق الديباجة. وربما كان ذلك سبباً لطمس المحاسن ؛ كالذي نجده كثيراً في شعر أبي تمام ، فإنه حاول من بين المحدثين الاقتداء بالأوائل في كثير من ألفاظه ، فحصل منه على توعير اللفظ ، فقبح في غير موضع من شعره"[2].

---

(١) الوساطة ص ٣٣ ، ٣٤.

(٢) المصدر نفسه ص ١٩.

ويركز الجرجاني على أخطاء أبي تمام ، ويكرر أحكامه العامة في غير موضع ، من مثل قوله : "فقبح في غير موضع من شعره" ص١٩ ، "فيطمس تلك المحاسن ، ويمحو طلاوة ما قد قدم ؛ كما فعل أبو تمام في كثير من شعره" ص٢٢ – بل يذهب إلى أعلى درجات القسوة في حكمه على شعر أبي تمام فيقول : "وما تكاد قصيدة من شعره تسلم من أبيات ضعيفة ، وأخرى غثة ، لاسيما إذا طلب البديع وتتبع العويص ؛ ص٧٠ ، ويقول : "وما عليه لو حذف نصف شعره ، فقطع ألسن العيب عنه ، ولم يشرع للعدو باباً في ذمه"ص٢٢ ، ويقول : "ثم أعود إلى نسق الكتاب وأكتفي بما قدمته من هفوات أبي تمام وإن كان ما أغفلته أضعاف ما أثبته إذ البغية فيه الاعتذار لأبي الطيب لا النعي على أبي تمام. وإنما خصصت أبا نواس وأبا تمام لأجمع لك بين سيدي المطبوعين وإمامي أهل الصنعة وأريك أن فضلهما لم يحمهما من زلل ، وإحسانهما لم يصف من كدر فإن أنصفت فلك فيها عبرة ومقنع وإن لججت فما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون"[1].

فهذه كلها أحكام عامة على شعر أبي تمام ، والغض من شأنه ومكانته الشعرية ، وذنب أبي تمام في كل هذا التحامل هو مخالفة عمود الشعر والإتيان بمذهب جديد.

وقد أجمل القاضي الجرجاني ، عيوب أبي تمام في قوله : "فإنه حاول من بين المحدثين الاقتداء بالأوائل في كثير من ألفاظه ، فحصل منه على توعير اللفظ ، فقبح في غير موضع من شعره ، فقال:

فكأنما هي في السماع جنادل　　وكأنما هي في القلوب كواكب

فتعسف ما أمكن ، وتغلغل في التصعب كيف قدر ثم لم يرض بذلك حتى أضاف إليه طلب البديع ، فتحمله من كل وجه ، وتوصل إليه بكل سبب ، ولم يرض

---

(١) الوساطة ص٨٢.

بهاتين الخلتين حتى اجتلب المعاني الغامضة ، وقصد الأغراض الخفية ، فاحتمل فيها كل غث ثقيل ، وأرصد لها الأفكار بكل سبيل ؛ فصار هذا الجنس من شعره إذا قرع السمع لم يصل إلى القلب إلا بعد إتعاب الفكر ، وكد الخاطر ، والحمل على القريحة ؛ فإن ظفر به فذلك من بعد العناء والمشقة ، وحين حسره الإعياء ، وأوهن قوته الكلال. وتلك حال لا تهش فيها النفس للاستماع بحسن ، أو الالتذاذ بمستظرف؛ وهذه جريرة التكلف"[1].

ومن هنا نرى تحامل الجرجاني على أبي تمام ومحاولة الغض من شأنه ، والنيل منه ، ليرفع قدر صاحبه ، ويعلي من شأنه على حساب غيره - وهذه ليست طريقة القاضي المنصف الذي شرط على نفسه الإنصاف وتحري العدل.

وقد أحس الجرجاني بذلك ، فحاول أن يخفف من وطأة التحامل على أبي تمام فقال : "ولست أقول هذا غضاً من أبي تمام ، ولا تهجيناً لشعره ، ولا عصبية عليه لغيره. فكيف وأنا أدين بتفضيله وتقديمه ، وأنتحل موالاته وتعظيمه ، وأراه قبلة أصحاب المعاني ، وقدوة أهل البديع ! لكن ما سمعتني أشترطه في صدر هذه الرسالة أنه يحظر إلا اتباع الحق وتحري العدل والحكم به لي أو علي"[2].

وحاول الجرجاني أن يبعد الشبهة عن نفسه ، فأورد بعض محاسن أبي تمام في وساطته ، ولكنها نزر يسير إذا قيست بما أورده من مساوئه التي علق على بعضها وسكت عن كثير منها.

فمن المحاسن التي ذكرها الجرجاني لأبي تمام ، قوله عند الحديث عن حسد الأفاضل ، "وقد قيل :

وإذا أراد الله نشر فضيلة   طويت أتاح لها لسان حسود

---

(١) الوساطة ص ١٩.

(٢) المصدر نفسه ص ١٩ ، ٢٠.

صدق والله وأحسن ! " [1].

والبيت لأبي تمام وهو في ديوانه ٣٩٧/١ - ولكن لا أدري لماذا لم ينسبه الجرجاني لصاحبه ؟ ألعدم معرفة القائل ، أم ضناً على قائله ؟ والمهم أنه اكتفى بالاستحسان والإعجاب.

وقوله : "فالعجب كل العجب من خاطر قدح بمثل قوله:

أيامنا ما كنت إلا مواهباً   وكنت بإسعاف الحبيب حبائبا

سنغرب تجديداً لعهدك في البكا   فما كنت في الأيام إلا غرائبا"[2].

وكذلك قوله ، عند الحديث عن التخلص : "فأما أبو تمام والمتنبي فقد ذهبا في التخلص كل مذهب ، واهتما به كل اهتمام ، واتفق للمتنبي فيه خاصة ما بلغ المراد ، وأحسن وزاد"[3].

ولم يرد الجرجاني أن يتم استحسانه لأبي تمام في التخلص ، بل فضل عليه صاحبه المتنبي كما هو واضح في النص.

ومنها قوله - عند ذكر سرقات المتنبي :

قال أبو تمام - وقد روي هذا البيت لبكر بن النطاح ، وقد دخل في شعر أبي تمام:

ولو لم يكن في كفه غير نفسه   لجاد بها فليتق الله سائله

قال أبو الطيب:

يا أيها المجدى عليه روحه   إذ ليس يأتيه لها استجداء

احمد عفاتك لا فجعت بفقدهم   فلترك ما لم يأخذوا إعطاء

---

(١) المصدر السابق ص ١.

(٢) الوساطة ص ٢١.

(٣) المصدر نفسه ص ٤٨.

وبيت أبي تمام أو بكر بن النطاح أملح لفظاً وأصح سبكاً. وزاد أبو الطيب بقوله : إنه يجدي عليه روحه. ولكن في اللفظ قصور ، والأول نهاية في الحسن"[١].

فالقاضي الجرجاني ، حاول أن يخفي تحامله على أبي تمام تحت هذه المحاسن التي ذكرها عرضاً سريعاً دون إطالة كما فعل عند الوقوف على المساويء، مما يؤكد ما ذهبنا إليه سابقاً.

هذه هي المآخذ التي أخذها الجرجاني على أبي تمام مجملة – وهي لا تبعد كثيراً عن مآخذ النقاد السابقين – وسنفصل القول في هذه المآخذ ونقف عندها وقوفاً نقدياً ، تحليلاً ودراسة ، لنرى هل كان الجرجاني موفقاً أم خانه الذوق وشرد به الحكم ؟.

١ ـ تكلف أبي تمام وتفاوت شعره

تحدث النقاد قبل ذلك كثيراً عن الطبع والتكلف ، وكان لكل منهم ذوقه الخاص في الحكم على المطبوع والمتكلف من الشعراء وفق أسس رسمها لنفسه ، وأضاف إليها ذوقه وخبرته العملية والأدبية.

وأول من تحدث عن الطبع والتكلف كمصطلح أدبي ، هو الناقد العالم محمد بن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) ، ولكنه لم يوفق في التوصل إلى هذه الحقيقة ، ولم يستطع أن يعرفها تعريفاً دقيقاً ، وذلك حين تحدث عن المطبوع والمتكلف من الشعراء ، فقال : "ومن الشعراء المتكلف والمطبوع : فالمتكلف هو الذي قوم شعره بالثقاف ، ونقحه بطول التفتيش ، وأعاد فيه النظر بعد النظر ، كزهير والحطيئة. وكان الأصمعي يقول : زهير والحطيئة وأشباههما من الشعراء عبيد الشعر ، لأنهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين"[٢].

---

(١) الوساطة ص ٢١٦.

(٢) الشعر والشعراء ، لابن قتيبة ١/٢٢ ، ٢٣ – دار الثقافة – بيروت (ب. ت).

ويتحدث عن المتكلف وعلاماته في موطن آخر فيقول : "والمتكلف من الشعر وإن كان جيداً محكماً فليس به خفاء على ذوي العلم ، لتبينهم فيه ما نزل بصاحبه من طول التفكر ، وشدة العناء ، ورشح الجبين ، وكثرة الضرورات ، وحذف ما بالمعاني حاجة إليه ، وزيادة ما بالمعاني غنى عنه"[1].

ثم يحدد الأسس التي بها يتبين الشعر المتكلف ، فيقول : "وتتبين التكلف في الشعر أيضاً بأن ترى البيت فيه مقروناً بغير جاره ، ومضموماً إلى غير لفقه ، ولذلك قال عمر بن لجأ لبعض الشعراء : أنا أشعر منك ، قال : وبم ذلك ؟ فقال : لأني أقول البيت وأخاه ، ولأنك تقول البيت وابن عمه"[2].

فمن الواضح أن ابن قتيبة قد أخطأ في تحديد المتكلف ، حيث خلط بين التكلف وبين التنقيح ، وطول الفكر والروية.

ويتحدث عن المطبوع ، فيقول : "والمطبوع من الشعراء من سمح بالشعر واقتدر على القوافي ، وأراك في صدر بيته عجزه ، وفي فاتحته قافيته ، وتبينت على شعره رونق الطبع ووشي الغريزة ، وإذا امتحن لم يتلعثم ولم يتزحر"[3].

ونلاحظ أن ابن قتيبة قد أخطأ في تحديد الطبع والتكلف فلم يستطع التوصل إلى ماهية كل منهما ، وقد "خلط في كل قسم من القسمين اللذين يرد الشعر إليهما بين أمرين مختلفين كل الاختلاف :

١- بين التكلف ، وبين تقويم الشعر وتثقيفه بطول التفتيش وإعادة النظر بعد النظر كما كان يفعل زهير والحطيئة.

٢- بين الطبع والارتجال حتى لكأنه يظن أن الشعر المطبوع هو الشعر المرتجل ، وفي الأمثلة التي يوردها ما يدل على ذلك"[4].

---

(١) الشعر والشعراء ، لابن قتيبة ٣٢/١.

(٢) (٣) المصدر نفسه ٣٤/١.

(٤) النقد المنهجي عند العرب ، د. محمد مندور ص ٣٩

ونصل إلى الآمدي ، فنراه يتحدث عن المطبوع والمتكلف (صاحب الصنعة) من الشعراء ، ويحدد أركان الطبع وأركان الصنعة ، ولكنه ينسب الصنعة لأبي تمام ومن سار على طريقته ، وينسب الطبع للبحتري ومن سار على طريقته ، ثم يخبرنا بأنه قد اختار أصحاب الطبع ومنهم البحتري ، أي أنه قد انحاز لجانبه من أول الأمر ، يقول الآمدي في ذلك : "كما لم يتفقوا (النقاد) على أحد ممن وقع التفضيل بينهم من شعراء الجاهلية والإسلام والمتأخرين ، وذلك لميل من فضل البحتري ، ونسبه إلى حلاوة اللفظ ، وحسن التخلص ، ووضع الكلام في مواضعه ، وصحة العبارة ، وقرب المأتى ، وانكشاف المعاني. وهم الكتاب والأعراب والشعراء المطبوعون وأهل البلاغة. وميل من فضل أبا تمام ، ونسبه إلى غموض المعاني ودقتها ، وكثرة ما يورده مما يحتاج إلى استنباط وشرح واستخراج. وهؤلاء أهل المعاني والشعراء أصحاب الصنعة ومن يميل إلى التدقيق وفلسفي الكلام"(١).

وبعد أن يحدد الطبع والتكلف ، يرمي أبا تمام بالتكلف ، ويصف البحتري بالطبع والسجية ، ويعلل ذلك تعليلاً عاماً ، فيقول : "البحتري أعرابي الشعر ، مطبوع ، وعلى مذهب الأوائل ، وما فارق عمود الشعر المعروف ، وكان يتجنب التعقيد ومستكره الألفاظ ووحشي الكلام .... ولأن أبا تمام شديد التكلف ، صاحب صنعة ، ويستكره الألفاظ والمعاني ، وشعره لا يشبه أشعار الأوائل ، ولا على طريقتهم ؛ لما فيه من الاستعارات البعيدة ، والمعاني المولدة ، فهو بأن يكون في حيز مسلم بن الوليد ومن حذا حذوه – أحق وأشبه"(٢).

ويلتقط الجرجاني هذه الأسس من أستاذه الآمدي ، فيتحدث عن الطبع والتكلف بنفس المقاييس ، وينسب الطبع للبحتري وطريقته ، تماماً كما فعل الآمدي ،

---

(١) الموازنة ١/٤.

(٢) الموازنة١/٤،٥.

يقول : "وإذا أردت أن تعرف موقع اللفظ الرشيق من القلب ، وعظم غنائه في تحسين الشعر ، فتصفح شعر جرير وذي الرمة في القدماء ، والبحتري في المتأخرين .... فإن روعة اللفظ تسبق بك إلى الحكم ، وإنما تفضي إلى المعنى عند التفتيش والكشف. وملاك الأمر في هذا الباب خاصة ترك التكلف ورفض التعمل والاسترسال للطبع ، وتجنب الحمل عليه والعنف به ؛ ولست أعني بهذا كل طبع ، بل المهذب الذي قد صقله الأدب ، وشحذته الرواية ، و جلته الفطنة ، وألهم الفصل بين الرديء والجيد ، وتصور أمثلة الحسن والقبح"[١].

ويبدو تحيزه للبحتري في تطبيقه هذه الأسس على شعره ، واختيار نماذج للشعر المطبوع من شعره ، فيقول : "ومتى أردت أن تعرف ذلك عياناً ، وتثبته مواجهة ، فتعرف فرق ما بين المصنوع والمطبوع ، وفضل ما بين السمح المنقاد والعصي المستكره فاعمد إلى شعر البحتري ، ودع ما يصدر به الاختيار ، ويعد في أول مراتب الجودة ، ويتبين فيه أثر الاحتفال ، وعليك بما قاله عن عفو خاطره ، وأول فكرته"[٢].

ويأخذ في ضرب الأمثلة من شعر البحتري ، في النسيب ، والمديح ، معلقاً عليها بأعذب الألفاظ ، وأروع عبارات المديح والثناء ، معللاً لاختيار البحتري بأنه أقرب عهداً به ، وأشبه بعادات العرب وطباعها.

وفي مقابل إعجاب الجرجاني بالبحتري ، نراه ينعي على أبي تمام ، ويصفه بالتكلف والتصنع ؛ لأنه قلد القدماء في الإغراب ، فجاء بأشد تكلف ، وأتم تصنع ، يقول : "فإن رام أحدهم (الشعراء) الإغراب والاقتداء بمن مضى من القدماء لم يتمكن من بعض ما يرويه إلا بأشد تكلف ، وأتم تصنع ؛ ومع التكلف المقت ، وللنفس عن التصنع نفرة ، وفي مفارقة الطبع قلة الحلاوة وذهاب الرونق ، وإخلاق

---

(١) الوساطة ص ٢٤ ، ٢٥.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٥.

الديباجة. وربما كان ذلك سبباً لطمس المحاسن ؛ كالذي نجده كثيراً في شعر أبي تمام ، فإنه حاول من بين المحدثين الاقتداء بالأوائل في كثير من ألفاظه ، فحصل منه على توعير اللفظ ، فقبح في غير موضع من شعره"[1].

ويضرب الجرجاني أمثلة للتكلف في شعر أبي تمام ، بقول أبي تمام في يوسف السراج شاعر مصر في وقته:

فلو نبش المقابر عن زهـيـر	**لعـوّل بالبكـاء وبالنحـيـب**
مـتـى كانـت معانيه عيـالا	**على تفسيـر بقـراط الطـبيب**
وكيـف ولم يـزل للشعر مـاء	**يـرف عليـه ريحـان القلـوب[2]**

ويأخذ الجرجاني من تهكم أبي تمام بيوسف السراج تهكماً بأبي تمام نفسه ، فيقول معلقاً على بعض أبيات لأبي تمام يرى فيها التكلف : "فخبرني هل تعرف شعراً أحوج إلى تفسير بقراط وتأويل أرسطوليس من قوله:

جهميـة الأوصـاف إلا أنهـم	**قد لقبوها جوهر الأشـياء"[3].**

وسوف أرجيء الحديث عن هذا البيت حتى أصل إلى غموض المعاني في شعر أبي تمام.

ويذكر الجرجاني في سياق الحديث عن التكلف أمثلة من شعر أبي تمام ، فيقول : "وأي شعر أقل ماء ، وأبعد من أن يرف عليه ريحان القلوب من قوله :

خشنت عليه أخت بني الخشين	**وأنجـح فيـك قول العاذلَيْـن**
ألم يقنعك فيـه الهجـر حتى	**بكلت لقلـبه هجراً ببيـن**

---

(١) الوساطة ص ١٩.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠ ، وديوان أبي تمام ٣١٥/٤.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٠ ، ديوان أبي تمام ١/ ٣٠ .

فهل رأيت أغث من "بكلت" في بيت نسيب ! "[1].

والبيتان في الديوان من قصيدة ، يمدح بها إسحاق بن إبراهيم ، ويذكر إيقاعه بالمحمرة أصحاب بابك - ورواية الديوان "بني خشين" بدلاً من "بني الخشين".

ويعيب الجرجاني لفظة "بكلت" في النسيب ، وهي بمعنى "خلطت" ويراها غثة في النسيب.

ولست أرى فيها شيئاً ، طالما فصيحة وصحيحة ، ووقعت في موقعها ، ولاسيما ولم يذكرها الآمدي ، ولا التبريزي بسوء.

ويأخذ الجرجاني على أبي تمام ، اختلاف شعره في القصيدة الواحدة ، ويرى أنه زاوج بين الطبع والتكلف مما أدى به إلى سوء النسج ، واضطراب القصيدة ، يقول : "ومن جنايات هذا الاختيار على أبي تمام وأتباعه أن أحدهم بينما هو مسترسل في طريقته، وجار على عادته يختلجه الطبع الحضري ، فيعدل به متسهلاً ، ويرمي بالبيت الخنث ، فإذا أنشد في خلال القصيدة ، وجد قلقاً بينها نافراً عنها ؛ وإذا أضيف إلى ما وراءه وأمامه تضاعفت سهولته ، فصارت ركاكة"[2].

ويخص أبا تمام دون غيره في هذا الجانب ، ويتهمه بالإكثار في هذا العيب، فيقول : "وربما افتتح الكلمة وهو يجري مع طبعه ، فينظم أحسن عقد ، ويختال في مثل الروضة الأنيقة ، حتى تعارضه تلك العادة السيئة فيتسنم أوعر طريق ، ويتعسف أخشن مركب ، فيطمس تلك المحاسن ، ويمحو طلاوة ما قد قدم ؛ كما فعل أبو تمام في كثير من شعره ؛ ومنه قوله:

لو حار مرتاد المنية لم يجد	إلا الفراق على النفوس دليلا
قالوا الرحيل ، فما شككت بأنها	نفسي من الدنيا تريد رحيلا

---

(1) الوساطة ص ٢٠ ، ٢١ ، ديوان أبي تمام ٢٩٧/٣.

(2) المصدر نفسه ، ص ٢٢.

الصبر أجمل غير أن تلذذا	في الحب أحرى أن يكون جميلا
أتظنني أجد السبيل إلى العزا	وجد الحمام إذا إلى سبيلا !
رد الجموح الصعب أسهل مطلبا	من رد دمع قد أصاب مسيلا
ذكرتكم الأنواء ذكرى بعضكم	فبكت عليكم بكرة وأصيلا
إني تأملت النوى فوجدتها	سيفاً على أهل الهوى مسلولا

ثم عدل عن النسيب فقال:

لو جاز سلطان القنوع وحكمه	في الخلق ما كان القليل قليلا
من كان مرعى عزمه وهمومه	روض الأماني لم يزل مهزولا[1]

ويأخذ الجرجاني في الموازنة بين هذه الأبيات التي أعجب بها لسهولتها ورقتها ، وبين أبيات أخرى في وصف الناقة ، رأى فيها التكلف والتصنع ، فيقول : "فهو كما تراه يعرض عليك هذا الديباج الخسرواني ، والوشي المنمنم ، حتى يقول :

لله درك أي معبر قفرة	لا يوحش ابن البيضة الإجفيلا
أو ما تراها لا تراها هزة	تشأى العيون تعجرفاً وذميلا

فنغص عليك تلك اللذة ، وأحدث في نشاطك فترة"[2].

والجرجاني – كما هو واضح – ينقد نقداً عاماً في هذا الموطن ، فلم يبين لنا مواطن الجمال في النص الأول ، كما أنه لم يضع أيدينا على سبب رفضه للبيتين

---

(١) الوساطة ص ٢٢ ، ٢٣ ، ديوانه ٣/٦٦ ومابعدها.

(٢) ويعلق محقق كتاب الوساطة على البيتين الأخيرين بقوله : خرج إلى صفة الناقة بغير ذريعة إلى الخروج، وابن البيضة: الظليم. والإجفيل: الكثير الإجفال. والتعجرف: النشاط في السير. والذميل: نوع منه. وتشأى: تسبق-وهذا التعليق مأخوذ من التبريزي في شرح ديوان أبي تمام.

الأخيرين.

والقصيدة في ديوان أبي تمام في مديح نوح بن عمرو السكسكي، ومطلعها :

يوم الفراق لقد خلقت طويلا لم تبق لي جلداً ولا معقولا

وهي في ثلاثين بيتاً ، وقد ترك الجرجاني أبياتاً بين الجزء الأول والجزء الثاني من مواطن الاستشهاد.

ويبدو أن الجرجاني عاب على أبي تمام هذه القصيدة لتفاوت الألفاظ والأسلوب فيها رقة وخشونة ، ولكنه نسي أن كل غرض يناسبه نوع من الألفاظ والأسلوب هو به أحرى ، فالنسيب غير وصف الناقة وما تلاقيه من وعورة الصحراء ، وقسوة الطبيعة . وهذا هو كلام الجرجاني نفسه حينما أمر الشعراء والكتاب بالمواءمة بين اللفظ والمعنى في الأغراض.

ومما يتصل بالطبع والتكلف ، حديث الجرجاني عن عمود الشعر ، وتحديده لأسسه ومحاوره التي يرتكز عليها ، وإخباره بأن أبا تمام خرج على هذا النسق الموروث ، بينما جاء شعر البحتري على هذه المقاييس النقدية المعروفة لدى النقاد القدماء.

ويظهر لنا هذا الجانب بوضوح عند الموازنة التي عقدها الجرجاني بين أبي تمام وأعرابي في الغزل ، ففضل الأعرابي لقربه من عمود الشعر ، وذم أبا تمام لابتعاده عنه – مع جودة شعره الذى استشهد به– ، يقول : "وقد تغزل أبو تمام فقال:

دعني وشرب الهوى يا شارب الكاس فإنني للذي حسيته حاسي

لا يوحشنك ما استعجمت من سقمي فإن مَنزله من أحسن الناس

من قطع ألفاظه توصيل مهلكتي ووصل ألحاظه تقطيع أنفاسي

متى أعيش بتأميل الرجاء إذا ما كان قطع رجائي في يديْ ياسي"[1].

---

(١) الوساطة ص ٣٢ ، ديوانه ٤/٢١٦.

والمقطوعة في ديوانه ، وهي تقع في ستة أبيات ، حذف منها الجرجاني بيتين ، الثالث والخامس ، وهي كلها في الغزل.

ويعلق الجرجاني على هذه الأبيات التي اختارها لأبي تمام ، بقوله : "فلم يخل بيت منها من معنى بديع وصنعة لطيفة ؛ طابق وجانس ، واستعار فأحسن ، وهي معدودة في المختار من غزله. وحق لها ؛ فقد جمعت على قصرها فنوناً من الحسن ، وأصنافاً من البديع ، ثم فيها من الإحكام والمتانة والقوة ما تراه"[1].

ومع كل هذه المزايا التي اعترف بها الجرجاني في هذه الأبيات ، إلا أنه فضل عليها شعر الأعرابي ؛ لأنه يراه مطبوعاً غير متكلف ، أي قريب عهد بالشعر العربي الذي جاء على العمود المعروف الذي يرتضيه الجرجاني وأقرانه من نقادنا القدامى ، ويرون الخروج عليه ضرباً من الغلو والتكلف والصنعة.

يقول الجرجاني موازناً بين أبي تمام والأعرابي : "ولكنني ما أظنك تجد له من سورة الطرب وارتياح النفس ما تجده لقول بعض الأعراب:

أقول لصاحبي والعيس تهوى	بنا بين المنيفة فالضمار
تمتع من شميم عرار نجد	فما بعد العشية من عرار
ألايا حبذا نفحات نجد	وريا روضه غب القطار
وعيشك إذ يحل القوم نجدا	وأنت على زمانك غير زار
شهور ينقضين وما شعرنا	بأنصاف لهن ولا سرار
فأما ليلهن فخير ليل	وأقصر ما يكون من النهار

فهو كما تراه بعيداً عن الصنعة ، فارغ الألفاظ ، سهل المأخذ ، قريب التناول"[2].

فالجرجاني في هذا الحكم قد جانبه التوفيق، إذ إن أبيات أبي تمام هذه جاءت مطبوعة بطابعه الفطري ، غير أنه ألبسها من ذوقه وحضارته وثقافته وشياً جميلاً ،

---

(١) المصدر السابق ص ٣٣.

(٢) الوساطة ص ٣٣.

وزينة بهية ؛ ولعل هذا هو السبب في تفضيل الجرجاني للأعرابي على أبي تمام ؛ لقرب الأعرابي من عمود الشعر ، وإدخال أبي تمام بعض التعديلات الجيدة عليه.

٢ ـ وجود بعض الألفاظ الغريبة والحوشية في شعره.

هذا هو المأخذ الثاني الذي أخذه الجرجاني على أبي تمام ، وهو تصيده للغريب من الألفاظ ، وتشبهه بالبدو في هذا الجانب ، وهذا لا يجوز – من وجهة نظر الجرجاني – إذ يحتمل للقدماء ولا يحتمل للمحدثين.

ولم يكن الجرجاني بدعاً بين النقاد في هذه النظرة للمحدثين ، بل هي نظرة معظم النقاد القدامي ، فنرى ذلك واضحاً جلياً في قول ابن قتيبة : "وليس للمحدث أن يتبع المتقدم في استعمال وحشي الكلام الذي لم يكثر ، ككثير من أبنية سيبويه ، واستعمال اللغة القليلة في العرب ، كإبدال الجيم من الياء .... وفيما ذكرت منه ما دلك على ما أردت من اختيارك أحسن الروى ، وأسهل الألفاظ ، وأبعدها من التعقيد والاستكراه ، وأقربها من أفهام العوام .... فإنه يقال أسير الشعر والكلام المطمع ، يراد الذي يطمع في مثله من سمعه ، وهو مكان النجم من يد المتناول"(١).

وتحدث الآمدي، أيضاً عن إكثار أبي تمام من استعمال الغريب والوحشي ، وعاب عليه ذلك، فقال: "وأظنه "أبا تمام" سمع بما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في زهير بن أبي سلمى لما قال [فيه] : "كان لا يعاظل بين الكلام ، ولا يتتبع حوشيه" .... فلم يرتض ما قاله عمر ، وأحب أن يستكثر مما ذمه وعابه .... وقد فسر أهل العلم معنى حوشي الكلام ، وهو اللفظ الغريب الذي لا يتكرر في كلام العرب كثيراً ؛ فإذا ورد ورد مستهجناً"(٢).

---

(١) الشعر والشعراء ٤٥/١ : ٤٧.

(٢) الموازنة ٢٩٣/١ (بتصرف يسير).

ونراه في موطن آخر يعيب أبا تمام ، ويصفه بتعمد الخطأ والإكثار من الغريب ، فيقول : "وأما قول عمر رضي الله عنه في زهير : "إنه كان لا يتتبع حوشي الكلام" فإن أبا تمام كان لعمري يتتبعه ، ويتطلبه ، ويتعمل لإدخاله في شعره"(١).

وقبل الآمدي قرر هذا الحكم ، قدامة بن جعفر (ت ٣٢٧هـ) في كتابه "نقد الشعر" ، حيث وضع ضوابط لعيوب اللفظ ، فقال : "أن يكون ملحوناً وجارياً على غير سبيل الإعراب في اللغة .... وأن يرتكب الشاعر فيه ما ليس يستعمل ولا يتكلم به إلا شاذاً ، وذلك هو الحوشي الذي مدح عمر بن الخطاب زهير بمجانبته له وتنكبه إياه فقال : كان لا يتتبع حوش الكلام"(٢).

وبعد أن بين ملامح اللفظ الحوشي ، جوز استخدامه للقدماء دون المحدثين ، وبين السبب في ذلك بقوله : "وهذا الباب مجوز للقدماء ليس من أجل أنه حسن لكن من شعرائهم من كان أعرابياً قد غلبت عليه العجرفة ومست الحاجة إلى الاستشهاد بأشعارهم في الغريب، ولأن من كان يأتي منهم بالحوش لم يكن يأتي به إلا على جهة التطلب والتكلف، لما استعملة منه لكن بعادته ، وعلى سجية لفظه ، فأما أصحاب التكلف لذلك فهم يأتون منه بما ينافر الطبع وينبو عنه السمع"(٣).

ومن غريب الأمر أن قدامة بن جعفر لم يذكر مثالاً واحداً لأبي تمام في غريب الألفاظ ، وإنما ذكر لشعراء آخرين – بل إنه لم يذكر لأبي تمام في كتابه كله سوى بيت واحد في آخر الكتاب ، هو في عيوب ائتلاف المعنى والقافية، سنذكره في حينه إن شاء الله تعالى.

---

(١) المصدر نفسه ١/٣٠٠.

(٢) نقد الشعر ، قدامة بن جعفر ص ١٧٢ – تحقيق د. محمد عبد المنعم خفاجي – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان (ب.ت).

(٣) نقد الشعر ص ١٧٢.

ونأتي إلى القاضي الجرجاني وموقفه من غريب أبي تمام ، فنراه يعيب عليه، ويرميه بالإكثار في هذا الجانب ، ويذكر عاقبة هذا الإكثار عليه ، فيقول : "وربما كان ذلك (التكلف) سبباً لطمس المحاسن ؛ كالذي نجده كثيراً في شعر أبي تمام ، فإنه حاول من بين المحدثين الاقتداء بالأوائل في كثير من ألفاظه ، فحصل منه على توعير اللفظ فقبح في غير موضع من شعره"[1].

ولهذا وضع النقاد أسساً لصحة الألفاظ ، ذكرنا منها آنفاً قول قدامة بن جعفر، ونذكر الآن قول ابن سنان الخفاجي في هذا الموضوع ، يضع ابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦هـ) شروطاً لفصاحة اللفظة المفردة هي :

١ - أن يكون تأليف اللفظة من حروف متباعدة المخارج.

٢ - أن تجد للفظة في السمع حسناً ومزية على غيرها لأمر يقع في التأليف.

٣،٤- أن تكون الكلمة غير وحشية ولا عامية.

٥ - أن تكون الكلمة جارية على العرف العربي الصحيح.

٦ - اجتناب الكلمة الكثيرة الحروف.

٧ - اجتناب تكرار التصغير والنداء والترخيم والنعت والعطف[2].

وقد تتبع الجرجاني شعر أبي تمام، واستخرج منه كثيراً من الألفاظ الغريبة والحوشية، وسنذكر أمثلة لها مع تعليق الجرجاني عليها وموازنة آرائه بآراء غيره من النقاد في هذا الجانب.

فمن ذلك: الأبيات التي ذكرناها سابقاً عند الحديث عن تفاوت شعر أبي تمام في القصيدة الواحدة ، واختلاف ألفاظه رقة وخشونة مع أنه لم يعلق عليها إلا بأنها

---

(١) الوساطة ص ١٩.

(٢) انظر : سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ص ٨٧ وما بعدها - شرح وتصحيح : عبد المتعال الصعيدي-مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده بالقاهرة ميدان الأزهر ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م

نغصت لذة المستمع وفترت من نشاطه ، ومما زاد في ذلك اقترانها في قصيدة واحدة.

ومن ذلك قوله عن أبيات متفرقة إلا أنها حوت الغريب المستكره من الألفاظ: "فإنك تعلم بعد ما بين قوله :

كادت لعرفان النوى ألفاظها　　　من رقة الشكوى تكون دموعا

وقوله:

هـن البجـاري يا بجير　　　أهـدى لهـا الأبؤس الغوير

وقوله :

أهيس أليس لجّاء إلى همم　　　تغرق الأسد في آذيها الليسا

لكنها افترقت فغابت ، ولم تقترن فتعرف وتشهر"[1].

فهو يرى أن هذه الأبيات فيها تكلف ، وليس فيها طبع ؛ وسبب ذلك وجود بعض الألفاظ الحوشية الغريبة ، وغموض معناها ، إلا أنه لم يفصح عن هذا ، وإنما جعل عيب القصيدة السابقة اقتران المكلف بالمطبوع ، والغريب بالواضح المعروف، وسكت عن التعليق على هذه الأبيات المفردة لوجودها مفرقة في قصائد مختلفة.

ولنتحدث الآن عن هذه الأبيات من وجهة نظر بعض النقاد الآخرين ، فأما قوله:

كادت لعرفان النوى ألفاظهـا　　　من رقـة الشكوى تكون دموعـاً[2]

فهو من قصيدة يعرض فيها بإسحق بن إبراهيم المصعبي ، وهي من ثمانية أبيات مطلعها:

بسطت إلى بنانة أسروعـا　　　تصـف الفـراق ومقلة ينبوعـا

(١) الوساطة ص ٢٣.

(٢) ديوانه ٤/٤٩٠.

والبيت الذي معنا هو الثاني ، ولم يعلق عليه التبريزي بكلمة واحدة ، كذلك لم يرد في المعيب من شعر أبي تمام في الموازنة – وعلى كل حال فليس هناك ألفاظ حوشية في البيت.

وأما قوله:

هن البجارى يا بجير أهدى لها الأبؤس الغوير[1]

فلم يرد في الديوان ، وإنما جاء في الموازنة ، واستدل عليه الآمدي بإدخال أبي تمام الألفاظ الغريبة في شعره ، فقال : "ومع ذلك فإن أبا تمام تعمد أن يدل في شعره على علمه باللغة وبكلام العرب ؛ فتعمد إدخال ألفاظ غريبة في مواضع كثيرة من شعره ، وذلك نحو قوله:

هن البجارى يا بجير أهدى لها الأبؤس الغوير"[2].

والأبؤس : جمع بأس ، والغوير غار ، يشير إلى المثل المشهور "عسى الغوير أبؤسا" وهو يضرب للرجل يخبر بالشيء فيتهم فيه[3]. والبجاريُّ : جمع بجرية ، وهي الداهية.

والغريب هنا ليس من الغريب الضارب في الغرابة ، وإنما هو قريب المعنى واضح للخاصة دون عناء أو كد خاطر.

---

(١) الموازنة ٢٦/١.

(٢) المصدر نفسه ٢٥/١ ، ٢٦.

(٣) راجع : الموازنة ٢٦/١ هامش (١).

وأما قوله:

أهيس أليس لجاء إلى همـــم   تغرق الأسد في آذيها الليسا [(١)]

فهو في ديوانه من قصيدة يمدح بها عياش بن لهيعة الحضرمي ، ومطلعها :

أحيا حشاشة قلب كان مخلوسا   ورم بالصبر عقلاً كان مالوسا

وهي تقع في ستة وعشرين بيتاً ، والبيت الذي معنا ترتيبه السادس عشر في القصيدة، وقال التبريزي في تعليقه على البيت:

يقال : "رجل أليس" إذا كان شجاعاً لا يبرح موقفه في الحرب ، و "أهيس" من قولهم هاس يهيس إذا وطيء وطئاً شديداً أو سار سيراً عجلاً ، ويقولون هاس يهوس بالواو، وعندهم أن "هاس" و "حاس" و "جاس" متقاربات.

وعلق الآمدي عليه بقوله:

"ويروى "أهيس أليس" والأهيس : الجاد ، وهذه الرواية أجود. والهلاس : السلال من شدة الهزال ، فكأن قوله : "أهلس" يريد خفيف اللحم .... فهاتان اللفظتان (أهيس ، أليس) مستكرهتان إذا اجتمعتا ، ثم لم يقنع بأهلس أليس حتى قال في آخر البيت: "الليسا" يريد جمع أليس"[(٢)].

فهذه الألفاظ غريبة حوشية ، ومع ذلك فلم يعلق عليها الجرجاني.

وقد حدد ابن رشيق صفات الكلمة الغريبة الحوشية بقوله : "وإذا كانت اللفظة خشنة مستغربة : لا يعلمها إلا العالم المبرز ، والأعرابي القح ، وحشية ،

---

(١) ديوانه ٢٥٨/٢ ، الموازنة ٣٠٠/١.

(٢) الموازنة ٣٠٠/١.

وكذلك إن وقعت غير موقعها ، وأتي بها مع ما ينافرها ، ولايلائم شكلها. وكان أبو تمام يأتي بالوحشي الخشن كثيراً ، ويتكلف"[1].

وهناك ألفاظ بدوية عابها الجرجاني على أبي تمام ، ووصفه بالتعجرف ، والتشبه بالبدو ، فقال فيها : "فإن أظهر التعجرف ، وتشبه بالبدو ، ونسي أنه حضري متأدب ، وقروي متكلف جاءك بمثل قوله:

قد قلت لما اطلخم الأمر وانبعثت   عشواء تالية غُبساً دهاريسا

وقوله:

فعنيفها يعضيدها ووشيجها   سعدانها وزميلها تنومها

وقوله:

إن الأشاء إذا أصاب مشذّبٌ   منه اتمهل ذرى وأث أسافلا

وقوله:

وحادث أخرق داويته   رداعة داهية دردبيس

وقوله:

ومزحزحاتي عن ذراك عوائق   أصحرن بي للعنقفير المؤيد

وقوله:

مقابل في ذرى الأذواء منصبه   عيصا فعيصا وقدموسا فقدموسا

ثم لو لزم ذلك واستمر عليه دينا وعادة ، واتخذه إماما وقبلة لقلنا : بدوي جرى على طبعه أو متحضر حن إلى أصله ؛ لكنه يعرض عنه صفحاً ويتناساه جملة"[2].

---

(١) العمدة ١٠١٦/٢.

(٢) الوساطة ص ٧٢ ، ٧٣.

فالجرجاني في هذا النص لم يعب الألفاظ الغريبة لذاتها ، وإنما عابها لأن قائلها هو أبو تمام ، وهو حضري ، ليس بدوياً قحا ، ولا بدوياً متحضراً حن إلى أصله - والأمر عندي غير هذا ، إذ اللفظ لا يعاب بقائله ، وإنما يعاب لذاته ، وصحيح "إن يكن التكلف بغيضاً إلى النفس إلا أن المقياس لايصح أن يكون بدوية الأسلوب أو حضريته ، وإنما دقته. وإذا لم يكن بد من استعمال الألفاظ البدوية فمن الواجب استعمالها ، وإن قبحت أمثال تلك الألفاظ عندما يعدل إليها قصداً ورغبة في الإعراب كما كان يفعل أبو تمام أحياناً. فالمعرفة باللغة - أكبر معرفة - مصدر يسر وقوة للشاعر .... وأن العبرة في أغلب الأحيان ليست بكثرة المفردات بل بحسن التصرف فيها والقدرة على إدخالها في يسر في الجمل ، وإخضاعها للعبارة التامة الدقيقة عما نحس به أو نفكر فيه"[١].

فالألفاظ التي اختارها الجرجاني مثالاً للغموض والحوشية ، لم يتكلف بها أبو تمام، وإنما هو عالم باللغة ، واستطاع أن يدخلها في تركيبات جيدة ، والعبرة بالتركيب وصحة النسق ، وليس بالبدوي أو الحضري من الألفاظ.

فقوله:

قد قلت لما اطلخم الأمر وانبعثت   عشواء تالية غبسا دهاريسا[٢]

جمع أكثر من كلمة (اطلخم): اشتد وأظلم ، (عشواء) : داهية يعشى فيها ، (الغبس): الد= واهي السود المظلمة ، (الدهاريس) : تستعمل في الدواهي.

وقد استطاع أن يعبر عن شدة الموقف بهذه الألفاظ القوية الغريبة بدقة وإحكام. وإذا تتبعنا الألفاظ في بقية الأبيات وجدناها غريبة حوشية ، إلا أنه استطاع أن يضعها في موضعها الصحيح ، ويعبر عنها بدقة وإيحاء.

---

(١) النقد المنهجي عند العرب ، د. محمد مندور ص ١٢١.

(٢) ديوان أبي تمام ٢/٢٥٦.

وقوله: عيصا، قدموسا، غريبتان – والعيص هو الأصل، يقال، للأصل: العيص. والقدموس والقدامس: القديم ، الأذواء : جمع القوم الذين يقال لهم ذو جدن، وذويزن[1].

وكذلك : الدرديس : الداهية ، العنقفير : الداهية ، العنيق : المعانق ، اليعضيد : بقلة تشبه الهندباء البري ، الوشيج : اشتباك القرابة ، السعدان نبت من أفضل مراعي الإبل ، الزميل : الرفيق ، التنوم : شجر.

وكذلك : الأشاء : صغار النخل ، اتمهل : انتصب واعتدل ، أث النبت : كثر والتف.

وأبو تمام كان يفعل ذلك عن علم وتمكن ؛ ولذا فقد شغف بالإغراب حتى إنك إذا أقبلت على شعره صدمتك "وعورته ، فتحاول التغلب عليها ، وتكد نفسك في تذليل عقباتها، ولكنك لا تلبث أن تشعر بتعب قد يحملك على النكوص. على أنك إذا صبرت وتابعت الشاعر في أساليبه وغرائبه وأخذت تجلو لنفسك معانيه ، حمدت عاقبة هذا العمل وشعرت بما يستهويك من بديع تخيلاته وجزالة ألفاظه"[2].

فشعر أبي تمام من نوع خاص ، وغموضه إنما جاء من كثرة علمه ، وإغراقه في المعرفة باللغة والأدب ، فشعره يحتاج إلى صبر في الأخذ والفهم حتى إذا ما اتضح مراده ، ظهرت جوانبه الجمالية التي تدل على عبقرية الشاعر وسعة علومه ومعارفه – ولكن النقاد القدامى نظروا إليه نظرة جامدة تقف عند حد معين من اللغة لا يجب أن تزيد عليها ، فظلموه في كثير من المآخذ التي اتفقوا عليه فيها.

كما أنهم احتكموا إلى معايير معينة ، كانت بمثابة الميزان الذي يزنون به الألفاظ ، وأول هذه المعايير "التي احتكم إليها النقاد والكتاب المعيار الصوتي في

---

(١) انظر : ديوانه ٢/٢٥٩.

(٢) أمراء الشعر العربي في العصر العباسي ، أنيس المقدسي ص ٢٠٧ – دار العلم للملايين – بيروت – لبنان ط١٠ ، يناير ١٩٧٥م.

نقد ألفاظ الشعر فقد فصلوا بين اللفظ ومعناه فتحولت الكلمات لديهم إلى أصوات تطرب لها الأذن .... وقد أدى هذا الفصل بين اللفظ ومعناه إلى النظر إلى الشعر على أنه مجرد أنغام تتملق حاسة السمع حتى ارتبطت وظيفة الشاعر بوظيفة المطرب"[1].

وبهذا المعيار نظروا إلى اللفظ ، فصادروا كثيراً من الألفاظ التي لا تتفق وهذا المعيار الصوتي وخصوصاً ألفاظ أبي تمام التي عدوها غريبة من هذا الجانب، فجاء "تقدهم لألفاظه نقداً انطباعياً تأثرياً ترددت فيه عبارات "كلام بغيض" ، "غريب مستكره" "لا أحب" "أنا أكره قوله" ... وهكذا "[2].

٣ ـ التعقيد والغموض في معاني الشعر (وأخطاء المعاني):

قلنا سابقاً إن أبا تمام كان عالماً شاعراً ذا بصر بعلوم اللغة والأدب – ولم يكتف أبو تمام بهذه المعارف ، وإنما اطلع على علوم كثيرة ، منها الفلسفة ، ومنها علوم أصحاب الكلام ، وغيرها من العلوم العصرية التي شاعت في عصره ، لكنه لم يقف جامداً حيالها كما فعل البحتري ، وإنما اطلع عليها فانصهرت في بوتقته الشعرية ، وخالطت شاعريته الفذة ، فجاءت كثير من معانيه مختلطة بهذا الفكر الدقيق العميق ، فاستغلقت على كثير من القدماء الذين لم يفهموه ؛ فوصفوه بالجمود والخطأ في كثير من معانيه ، بحق وبغير حق – وسنورد الأمثلة التي تدعم رأينا في هذا الموضوع.

وكما أحب النقاد القدماء وضوح الألفاظ وسهولتها ، أحبوا كذلك وضوح المعاني وعدم غموضها ، بل واشترطوا ذلك في فصاحة التركيب ، فمن فصاحة التركيب "ألا يكون في الكلام تقديم وتأخير حتى يؤدي ذلك إلى فساد معناه وإعرابه

---

(١) ، (٢) شعر أبي تمام ، د. سعيد مصلح ص ٣٢ ، ٣٣.

في بعض المواضــع ، أو سلوك الضرورات حتى يفصل فيه بين ما يقبح فصله فـي لغة العرب كالصلة والموصول وما أشبههما"[1].

ومن فصاحته أيضاً ، أن يكون معنى الكلام واضحاً جلياً لا يحتاج إلى فكر في استخراجه وتأمل لفهمه – سواء كان ذلك الكلام الذي لا يحتاج إلى فكر منظومـاً أو منثوراً"[2].

ولأجل هذا كـانوا يرفضـون معـاني أبـي تمـام التـي تحتـاج إلـى طـول فكـر ونظر، حتى قال له يعقوب الكندي ذات مرة : لم لا تقول مالا يفهم ؟ فـرد عليـه أبـو تمام قائلاً : ولم لا تفهم ما يقال ؟! فأفحمه !.

كما أنهم رفضوا دقة المعاني، وحجتهم في هذا أن "الغاية في تدقيـق المعنـى سبيل إلى تعميته ، وتعمية المعنى لكنـة ؛ إلا إذا أريـد بـه الإلغـاز وكـان فـي تعميتـه فائدة ، مثل أبيات المعاني ، وما يجري معها من اللحون التي استعملوها وكنـوا بهـا عن المراد لبعض الغرض"[3].

وطبق النقاد القدامى هذه المقاييس علـى أبـي تمـام ، فوصفـه الآمـدي بسـوء النسج وتعقيد النظم ووحشي الألفـاظ ، وعقـد لـه بابـاً فـي موازنتـه بهذا العنـوان – واستشهد بقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه – في مديـح زهـير بـن أبـي سـلمى "بأنه كان لا يعاظل في كلامه" ، ثم ذكر أن أبا تمام أحب أن يستكثر ممـا ذمـه عمـر – رضي الله عنه – وعابه ، وقد فسر الآمدي المعاظلة بقوله : "وقد فسر أهل العلـم هذا من قول عمر: وذكروا معنى المعاظلة، وهى مداخلة الكـلام بعضـه فـى بعض،

(١) سر الفصاحة ، ابن سنان الخفاجي ص ١٠١.

(٢) المصدر نفسه ص ٢١٨ ، ٢١٩.

(٣) الصناعتين ، أبوهلال العسكري ص ٢٩ – تحقيق علي محمـد البجـاوي ، محمد أبـو الفضـل إبراهيم – المكتبة العصرية – صيدا – بيروت ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.

وركوب بعضه لبعض ، كقولك " تعاظل الجراد ، وتعاظلت الكلاب ، ونحوهما مما يتعلق بعضه ببعض عند السفاد ، وأكثر ما يستعمل في هذين النوعين"[١].

وعقب الآمدي بعد مدخل الباب بذكر أمثلة لفساد معنى أبي تمام وتعقيد نظمه ، سنعرج عليها بعد حين.

كما ذكر القاضي الجرجاني الغموض والتعقيد في شعر أبي تمام ، وعاب الشاعر لأجل هذا ، بل وقسا عليه قسوة شديدة في الحكم ، فقال : "ولو كان التعقيد وغموض المعنى يسقطان شاعراً لوجب أن لا يُرى لأبي تمام بيت واحد؛ فإنا لا نعلم له قصيدة تسلم من بيت أو بيتين قد وفر من التعقيد حظهما ؛ وأفسد به لفظهما ، وكذلك كثر الاختلاف في معانيه ، وصار استخراجها باباً منفرداً ؛ ينتسب إليه طائفة من أهل الأدب ، وصارت تتطارح في المجالس مطارحة أبيات المعاني ، وألغاز المعمي"[٢].

ويحاول الجرجاني أن ينتصر لشاعره أبي الطيب المتنبي ، ويقدح في أبي تمام ، فيورد بيت الفرزدق :

وما مثله في الناس إلا مملكا   أبو أمه حي أبوه يقاربه

ويعلق عليه قائلاً : "وأنت لا تجد في شعر أبي الطيب بيتاً يزيد معناه على هذا الغموض ، أو تتعقد ألفاظه تعقد أبيات الفرزدق .... فأما ديوان أبي تمام فهو مشحون بهذين القسمين ، ومن أنصف حجزه حضور البينة عن المنازعة"[٣].

وتحامل الجرجاني هنا واضح جداً ، إذ إن شعر المتنبي لا يخلو من الغموض والتعقيد ، كما أن شعر أبي تمام ليس بهذه الكثرة الغامضة التي رماه بها الجرجاني.

---

(١) الموازنة ٢٩٣/١.

(٢) الوساطة ص ٤١٧ : ٤١٩.

(٣) الوساطة ص ٤١٧ : ٤١٩.

وقد ضرب الجرجاني بالغموض والتعقيد وفساد المعنى وخطئه أمثلة كثيرة، وعلق عليها - أحياناً - تعليقات سريعة ، وأحياناً أخرى تعليقات مطولة مستقاة من النقاد السابقين - وخصوصاً أستاذه الآمدي - وأحيان ثالثة كان يسكت عن التعليق ، ويكتفي بإيرادها في جملة الأمثلة.

فمن الأمثلة التي ضربها للغموض ، قول أبي تمام :

جهمية الأوصاف إلا أنهـــم قد لقبوهـــا جوهـر الأشياء[1]

وعلق عليها الجرجاني تعليقاً مقتضباً ، لا نقد فيه ، ولا تدقيق ، فقال : "فخبرني هل تعرف شعراً أحوج إلى تفسير بقراط وتأويل أرسطوليس من قوله (وذكر البيت)"[2].

أما الآمدي ، فلم يذكر هذا البيت في الباب الذي عقده لسوء النسج والتعقيد ، وربما كان هذا سبباً في عدم نقد الجرجاني له نقداً صحيحاً بيناً.

وعلق العسكري صاحب الصناعتين عليه تعليقاً ينم عن ذوقه القديم ، ورؤيته العربية القديمة للمعاني ، فقال : "وأما ما يتبهم فلا يعرف معناه إلا بالتوهم فهو مثل قول أبي تمام (وذكر البيت) ، فوجه الاشتراك في هذا : أن لجهم مذاهب كثيرة ، وآراء مختلفة متشعبة ، لم يدل فحوى كلام أبي تمام على شيء منها يصلح أن يشبه به الخمر وينسب إليه ، إلا أن يتوهم المتوهم فيقول : إنما أراد كذا وكذا ، من مذاهب جهم ، من غير أن يدل الكلام منه على شيء بعينه. ولا يعرف معنى قوله : "قد لقبوها جوهر الأشياء" إلا بالتوهم أيضاً "[3].

---

(١) ديوان أبي تمام ٣٠/١.

(٢) الوساطة ص ٢٠.

(٣) الصناعتين ص ٣٤.

فوجه العيب عند العسكري في هذا البيت ، هو استغلاق معناه ، وعدم معرفته إلا بالتوهم ؛ لاشتراك معاني كثيرة فيه يحتمله هذا البيت.

وجاء هذا البيت في ديوان أبي تمام ، في قصيدة يمدح بها محمد بن حسان الضبي ، وهو البيت الخامس عشر ، وقال التبريزي : يروي "جهمية الوصاف" وهو أجود من "الأوصاف" لقوله "لقبوها" فأعاد الضمير إلى المذكورين ... ثم قال : والجهمية طائفة من المتكلمين ينسبون إلى رجل يقال له جهم ، ومن اعتقادهم أن الإنسان لا يستطيع أن يفعل شيئاً ويلزمونه العقوبة على ما يفعل فتقع بذلك المناقضة. والطائي من وصاف الخمر ، فكأنه قد ذهب مذهب جهم لأنه يجعل الخمر لا فعل لها ، ثم يزعم أنها أسكرته وشوقته ، فيختلف خبراه عنها في الحال الواحدة. وقوله "جوهر الأشياء" هذا ضرب من صناعة الشعر يسميه أصحاب النقد التورية ، وذلك أنه ذكر هذه الطائفة من المتكلمين – ومن شأنهم أن يتكلموا في الجوهر والعرض – فأوهم السامع أنه يريد الجوهر الذي يستعمله أصحاب الكلام ، وإنما يريد الجوهر الذي هو رونق الشيء وصفاؤه[1].

ثم يذكر التبريزي رأي المرزوقي في هذا البيت ، فيقول : (المرزوقي) يقول: كان جهم بن صفوان يمتنع من أن يسمي الله تعالى شيئاً ، ويعتقد أن هذه اللفظة إنما تطلق على المحدثات : الجواهر والأعراض ، فيقول : رقت هذه الخمرة حتى كادت تخرج من أن تكون عرضاً أو جوهراً ، وأن تسمى شيئاً ، إلا أنها لفخامة شأنها لقبت جوهر الأشياء. ويجوز أن تكون لعتقها وقدمها سميت أصل الأشياء وأول الأشياء[2].

وقد جمع محقق الديوان الكلام والخلاف الذي كثر حول هذا البيت ، كقول الصولي: مذهب جهم الجحد وقلة التحصيل ، وقول المرزوقي الذي نقله ابن

---

(١) انظر : ديوان أبي تمام ١/٣٠ ، ٣١.

(٢) ديوان أبي تمام ص ٣٢.

المستوفي – رداً على الصولي – : والذي نسبه إلى جهم من الجحد وقلة التحصيل ليس بمذهب جهم ، والحق في هذا هو أن من مذهب جهم بن صفوان أن يمتنع من أن يسمي الله تعالى شيئاً .... فيقول أبو تمام : هذه الخمر لرقتها لا يسمونها شيئاً لكنهم لعتقها وقدمها جعلوها أصل الأشياء وجوهرها – وكلام الآمدي الذي نقله ابن المستوفي أيضاً : أن جهما كان يقول إنه ليس شيء على الحقيقة إلا اللـه تعالى ، إذ كل شيء يبطل ويتلاشى غيره ، والأشياء كلها أعراض ألفها وخلقها ، وأظن أن أبا تمام أراد أن الراح لرقتها عرض لا جسم – ومازلت أسمع الشيوخ يقولون هذا البيت من وساوسه وتخليطه ، لأن الشعر إنما يستحسن إذا فهم ، وهذه الأشياء التي يأتي بها منغلقة ليست على مذهب الأولين والمتأخرين – وأخيراً قال ابن المستوفي بعد أن أورد كلام الصولي والمرزوقي والآمدي وأبي العلاء المعري وغيرهم: فسر كل عالم هذا البيت على ما أداه رأيه إليه ، والصحيح ما قاله الآمدي من قوله : "وهذا البيت مما عهدتهم يفيضون فيه وفي تفسيره فلا يصح إلا بالحدس والظن"(١).

وإنما أفضت في نقول التعليقات حول هذا البيت ؛ لأهميته بالنسبة لنقاد الأدب وأصحاب المذاهب ، فهو يمثل لبعضهم طريقة التوهم وعدم الإبانة ، كما يمثل للبعض الآخر الفلسفة والعبقرية في الشعر ، وفي التوغل في المعنى ، وهذا ما نميل إليه ؛ لأن سبب الاضطراب لدى النقاد القدامى الذين عابوا هذا الغموض إنما خلطوا "بين الشعر والنثر فنظروا إلى الشعر من الجانب الإيصالي على أنه كلام يراد به نقل معنى من المعاني فتقاس قيمته بمدى إخلاصه ويسر نقله لهذا المعنى.... فلم يدرك أكثر النقاد العرب الفرق بين وظيفة الشعر ووظيفة النثر وأن لغة الشعر لها قيمة في حد ذاتها وليست وسيلة أو نشاطاً انتقالياً يهدف للتعبير عن

---

(١) انظر : ديوان أبي تمام ٣١/١ ، ٣٢ هامش رقم (٢).

معان وأغراض كما كان يرى ابن سنان الخفاجي ، ولهذا يجب أن تحافظ على نفسها دون أن تتحول إلى معنى عقلي محدد"[1].

وضرب الجرجاني مثلاً للمعاظلة في شعر أبي تمام ، بقوله :

يوم أفاض جوى أغاض تعزيا خاض الهوى بحرى حجاه المزبد[2]

لكنه لم يعلق عليه إلا بقوله السابق "فخبرني هل تعرف شعراً..." وجعله من الشعر الغامض ، لكنه لم يوضح لنا جانب الغموض أو التعقيد فيه.

وأما الآمدي ، فقد قدم له بقوله : "إن من المعاظلة التي قد لخصت معناها في الكتاب على "قدامة" شدة تعليق الشاعر ألفاظ البيت بعضها ببعض ، وأن يدخل لفظة من أجل لفظة تشبهها أو تجانسها ، وإن أخل بالمعنى بعض الإخلال. كقول أبي تمام (وذكر عدة أبيات منها هذا البيت)"[3].

وعاب الآمدي هذا التركيب ، جعل اليوم أغاض جوى ، والجوى أغاض تعزيا ، والتعزي خاض الهوى ، وجعله غاية في التعقيد والاستكراه. وكذلك عد خوض الهوى بحر التعزي معنى في غاية البعد والهجانة – وعاب توحيد المزبد وخفضه مع أن حقه التثنية والنصب ، كما استهجن وصف العقل بالإزباد لأن هذا من صفة البحر[4].

---

(١) شعر أبي تمام بين النقد القديم ورؤية النقد الجديد، د.سعيد مصلح السريحي ص ٣٨ ، ٣٩.

(٢) ديوان أبي تمام ٤٦/٢.

(٣) الموازنة ٢٩٦/١.

(٤) انظر : الموازنة ٢٩٦/١ ، ٢٩٧.

وبعد أن نقد البيت هذا النقد الموجع ، غمز أبا تمام في شعره ، وتحامل عليه تحاملاً واضحاً ، فقال : "وإذا تأملت شعره وجدت أكثره مبنياً على مثل هذا وأشباهه، وفيما ذكرته من هذه الأمثلة من شعره ما دلك على سواها"(١).

وعلق التبريزي على هذا البيت بقوله : "أغاض" : قليلة في الاستعمال ، وإنما يقال : غاض الماء وغاضه غيره ، ويجوز أن يكون الطائي سمع "أغاض" في شعر قديم ، وإن لم يكن قد سمع ، فالقياس يطلقه"(٢).

أما ابن سنان الخفاجي ، فقد نقل كلام الآمدي سالف الذكر ، ورضيه ، واتفق معه فيما قال.

ومما يتصل بالغموض والتعقيد ، إيراد المعاني الفلسفية التي تحتاج إلى إعمال فكر ، وكد الذهن ، وهذا ما أخذه القاضي الجرجاني على أبي تمام في قوله:

قسمت لي وقاسمتني بسلطا	**ن من السحر مقلتا عبدوس**
فالقسيم القسام عن لحظات	**منهما يختلسن حب النفوس**
فالذي قاسمت بلحظ إذا اللي	**ل تمطى من الكرى المنفوس(٣)**

ويعلق الجرجاني عليها بقوله : "ولست أدري – يشهد الله – كيف تصور له أن يتغزل وينسب ، وأي حبيب يستعطف بالفلسفة ! وكيف يتسع قلب عبدوس هذا ؛ وهو غلام غر ، وحدث مترف لاستخراج العويص وإظهار المعمي ! "(٤).

---

(١) المصدر نفسه ١/٢٩٧.

(٢) ديوان أبي تمام ٢/٤٦.

(٣) الوساطة ص ٦٨ – ولم ترد هذه الأبيات في الديوان ولافي الموازنة.

(٤) المصدر السابق ص ٦٨.

ولست أرى غموضاً في هذه الأبيات ، وإنما فيها شيء من البديع (الجناس المشتق) ، أما معناها فواضح وقريب ، ويتناسب مع عبدوس هذا الغلام الغر كما وصفه الجرجاني.

فالغموض والتعقيد ، إنما يأتيان كما قال البلاغيون ، من عدة جوانب ، منها: البنية الصوتية التي تتمثل في تكرار الصوت المفرد وتكرار الصيغة الصرفية ، ومنها : البنية النحوية التي تتمثل في التقديم والتأخير ، وتتابع الإضافات ، ومنها : الإبهام ، ويقال له المبهم والمستبهم والمستغلق ، وهو من الكلام الغامض الذي لا يفهم. ومنها : الغريب ، ومنها : المشترك ، وهو احتمال الكلمة لأكثر من معنى[1].

ومما يتصل بالمعنى ، العيوب التي يأخذها النقاد على الشعراء في المعاني ، كالأخطاء في المديح ، أو مخالفة الواقع ، أو العرف ، أو غير ذلك من المعاني.

وقد أخذ الجرجاني على أبي تمام بعض العيوب ، ورأى أنه خالف القواعد الشعرية والأصول النقدية ، والأعراف العامة فيها ، وسنذكر بعضها مع التعليق عليها.

فمن عيوب المعاني التي أخذها الجرجاني على أبي تمام ، عيوب المديح ؛ حيث وصف الممدوح بصفات لا تليق به – وقد وضع النقاد أصولاً لهذه الأغراض، ومنهم قدامة بن جعفر الذي حدد الصفات التي يجب على المادح استخدامها حسب مرتبة الممدوح ومكانته بين الناس وعمله ، فجعل الصفات النفسية من أحسن الصفات في المدح ، كالعفة والشجاعة ، والجود وغيرها من الصفات – كما جعل قدامة الخروج على هذه الأسس من عيوب المديح ، كالمدح بصفات جسدية مخالفة العرف والواقع[2].

---

(١) انظر : العربية والغموض ، د. حلمي خليل ص ١٤٠ ومابعدها – دار المعرفة الجامعية – الاسكندرية – الطبعة الأولى ١٩٨٨م.

(٢) انظر : نقد الشعر لقدامة ص ٩٥ ، ١٨٤.

أخذ الجرجاني على أبي تمام خطأه في المديح ، في قوله :

أأترك حاجتي غرض التواني وأنت الدلو فيها والرشاء [1]

وقوله:

ضاحي المحيا للهجير وللقنا تحت العجاج تخاله محراثا[2]

وقوله:

تشفى الحرب منه حين تغلي مراجلها بشيطـــان رجيـم [3]

وقوله:

ولي ولم يظلم وما ظلم امرؤ حث النجاء وخلفه التـنين [4]

ثم علق على هذه الأخطاء بقوله : "فهو يجعل الممدوح تارة دلواً ، وتارة محراثاً ، ومرة رشاء ، وأخرى تنيناً وشيطاناً رجيماً "[5].

ويرى الجرجاني أن أبا تمام تجرأ على ذكر لفظ الشيطان لسماعه قول جرير :

أيام يدعونني الشيطان من غزلي وهن يهوينني إذ كنت شيطانا

غير أنه يرى أن هناك تفاوتاً بين الموضعين ، وبعداً بين الكلامين[6].

---

(١) الوساطة ص ٦٩.

(٢) ديوانه ٣١٧/١.

(٣) المصدر نفسه ١٦٢/٣.

(٤) المصدر نفسه ٣١٨/٣.

(٥) الوساطة ص ٦٩.

(٦) المصدر والصفحة.

ولم يزد الجرجاني على ذلك ، فهو يعيب أبا تمام ؛ لأنه مدح ممدوحيه بصفات تشبه الهجو ، ولم يفطن للعلاقات التي أرادها الشاعر بين الصفات التي طلبها وبين ممدوحيه.

فالبيت الأول ، لم أعثر عليه في الديوان ، وإنما جاء في وساطة الجرجاني، ووصف أبي تمام لمدوحيه بالدلو والرشاء ، ليس معيباً ؛ لأنه قصد بذلك أنه سبب الخير للناس، فكما أن الدلو سبب في إروائهم بالماء ، فهو سبب في إروائهم بالمال.

والبيت الثاني ، من قصيدة يمدح بها مالك بن طوق ، وهو فيه يمدحه بأنه بارز للشمس ، وكل منكشف ضاح و "المحراث" عود تحرك به النار – وهو وصف جيد ؛ لأنه لما جعله بارزاً وسط الشمس بحرارتها ، والعجاج وشدته ، جعله منزرعاً في الوسط كالعود وسط النار.

والبيت الثالث من قصيدة يمدح بها بني عبد الكريم الطائيين ، وقد وصفه بالشيطان الذي تتقى به مراجل الحرب ، إذ الشيطان ينفخ في النار فيزيدها لهيباً – وهذا ما قصده أبو تمام – مع مافي ظاهره من الذم.

وأما البيت الرابع ، فمن قصيدة يمدح بها، الأفشين، وذكر لفظ التنين هنا يشبه الممدوح به ، وعلق التبريزي على البيت بقوله : العامة يتحدثون عن التنين أحاديث مستنكرة ، لاسيما أهل المغرب ، وبعضهم يقول التنين حية لها سبعة رؤوس وهو قليل التردد في كلام العرب القديم ، فيحتمل أن يكون اشتقاقه من التن، لأن بعض رؤوسه يشبه بضعاً ويماثله. والأشبه به أن يكون اسماً أعجمياً عُرب ، وهذه الأسماء القديمة لا يعلم كيف وضعها في الحقيقة.

ونقل المحقق تعليق الصولي عليه ، فقال : قد عاب هذا قوم ، وأبو تمام شامي، فالتنين يضرب به المثل في الشام ، كما يضرب في العراق بالأسد – وقال الحسين ابن الضحاك يعني إبراهيم بن المهدي وقد سكر فدعا له بسيف:

كذا من يشرب الرا ح مع التنين في الصيف

ولم يرد أن يهجوه وإنما وصف عظمه ، فكيف عيب به أبو تمام ؟ (١).

فالجرجاني لم يدرك القيمة المعنوية التي قصدها أبو تمام من وراء هذه الأوصاف ، فأراد أن يدخل لفظة (التنين) وهي كلمة قليلة في لغة العرب ؛ ليدلل على سعة علمه ، بالإضافة أنه شامي ، وربما كان الأفشين عظيم الخلقة فشبهه به.

ومن النقاد الذين عابوا هذا المعنى ، ابن سنان الخفاجي ، وجعلها من ألفاظ الذم وليست تستخدم في المدح – ثم خلط بين التنين والحية وجعلهما مترادفين ، لكنه أجاز استعمال الحية والأرقم في الشعر لورودهما في أشعار العرب بخلاف التنين الذي لم يرد في الشعر في المديح – وأرجع المعنى للعرف والعادة دون أصل وضع الأسماء في اللغة(٢).

وهذا لا يتفق مع أصل التنين ، إذ التنين ليس مرادف للحية ، فهو ثعبان كبير له سبعة رؤوس متشابهة كما بين المرزوقي من قبل.

ومن هذا القبيل ، قول أبي تمام:

شكوت إلى الزمان نحول جسمي   فأرشدني إلى عبد الحميد (٣)

وقد علق عليه الجرجاني ناقداً بقوله : "وإنما يرشد في نحول الجسم إلى الأطباء ، فأما الرؤساء والممدوحون فإنما يلتمس عندهم صلاح الأحوال"(٤).

وكانت نظرة الجرجاني ضيقة لهذا المعنى ، فلم يفطن إلى السبب الأصلي الذي من أجله توجه أبو تمام إلى عبد الحميد، فليس هو المرض والعلة ، وإنما هو الفقر والفاقة. وقد أحسن المرزوقي في التعليق على هذا البيت ، في قوله: "يريد بقوله "شكوت نحول جسمي" : أن ذلك من عارض أو علة ، حتى يقال مشتكاه يجب

---

(١) انظر : ديوان أبي تمام ٣/٣١٩ – هامش (١).

(٢) انظر : سر الفصاحة ، لابن سنان الخفاجي ص ١٥٤ ومابعدها.

(٣) ديوان أبي تمام ٢/١٣٣.

(٤) الوساطة ص ٧٦.

أن يكون إلى الطبيب. وإنما نحل جسمه لتأثير الضر فيه ، وتسلط الفقر عليه ، ولما أخرجه إلى الترحل ، وأحوجه إلى التعمل ، المغير للبدن ، الجالب للنحول والقشف، وإذا كان كذلك ، فيجب أن يكون إرشاد المشكو إليه إذا يصح إلى الكرام الأسخياء ؛ ليجبروا فقره ، ويلموا شعثه ، ويزيلوا هزاله وضمره ، وبذلك يسلم البيت من الطعن"(١).

ثم بين المرزوقي أن أبا تمام ليس بدعاً بين الشعراء في هذا المعنى ، وإنما هو معروف قبله ، لأن هذا "الطريق كثير في الشعر معتاد من الشعراء عند وصف الدهر بالمصائب والفقر والضر بالمصائب .... وفي هذه الطريقة قول الآخر ، وهو حسن جداً :

رآني على مابي عميلة فاشتكى   إلى ما له حالي ، أسر كما جهر

دعاني فآساني ولو ضن لم ألُم   على حين لاباد يرجى ولا حضر"(٢).

وهذا القول هو الأقرب للصواب ، والألصق بالواقع المعاش ، إذ الفقر والعوز ، يجعلان الإنسان نحيلاً هزيلاً ، لا لمرض ، وإنما للفاقة والفقر ، فتكون وجهتهم حينئذ للكرام المياسير – وإنما هو ذوق الجرجاني وتحامله على الشاعر بكل سبيل.

ومن أخطاء المعاني التي رآها الجرجاني ، قول أبي تمام :

ألذ من الماء الزلال على الظما   وأطرف من مر الشمال ببغداد(٣)

وعلق عليه بقوله : "فجعل الشمال طرفه ببغداد ، وهي أكثر الرياح بها هبوباً. وقد رواه بعض الرواة "أظرف" ، ولا أعرف معنى الظرف في الريح"(٤) .

---

(١) ، (٢) ديوان أبي تمام ١٣٣/٢ ، ١٣٤.

(٣) الوساطة ص٧٧.

(٤) المصدر السابق ص٧٧.

ومن أخطاء المعاني عند الجرجاني ، قول أبي تمام:

من الهيف لو أن الخلاخل صيرت لها وشحاً جالت عليها الخلاخل[1]

انتقده بقوله : "أراد وصفها بدقة الخصر ، فوصفها بغاية القصر والضئولة؛ لأن الوشاح يؤخذ من العاتق ويوشح إحدى طرفيه الصدر والبطن ، والآخر الظهر، حتى ينتهيا إلى الكشح ، ويلتقيا على الورك. وكيف حال من يجول الخلخال عن عاتقها وكشحها ، وهل تكون هذه من البشر فضلاً عن أن تنسب إلى الحسن ! "[2].
والبيت من قصيدة يمدح بها ابن الزيات ، وهو في الديوان.

وأورد الآمدي هذا البيت في أخطاء أبي تمام التي أخذها عليه أبو العباس ، ولكن الآمدي أظهر علمه وفنه ، وأخبر أن أبا العباس لم يذكر موضع العيب في هذا البيت ، وادعى أنه لم يعلمه – ثم استعرض في نقد هذا البيت استعراضاً يدل على سعة علمه ، وحيلته في الإيقاع بأصحاب المعاني المبهمة من الشعراء ، فخطّأ هذا الوصف ؛ لأن الخلاخل والبرين من شأنها أن توصف بالعض في الأعضاء والسواعد ، وتضيق في الأسوق ، ولا يجوز الخلخال أن يكون وشاحاً جائلاً على جسد المرأة – وأبو تمام إنما قال : من الهيف ، والهيفاء هي الضامرة البطن ، وقد تكون ضامرة مطوية وخصرها غير دقيق – وإن قيل : إنما ذهب إلى وصف البطن بالضمر ، لأنه قال : من الهيف والهيف الضوار البطون ، قيل : فهذا موضع غلطه وإحالته ؛ لأن ضيق الخلخال والوشاح لا يوجبه ضمر البطن – وإنما يدل على الضمر حركته لا غير – والخلخال بمعزل عن ذلك كله[3].

---

(١) ديوان أبي تمام ١١٥/٣.

(٢) الوساطة ص ٧٨ ، ٧٩.

(٣) انظر : الموازنة ١٤٧/١ ومابعدها.

وواضح أن الجرجاني متأثر تأثراً كبيراً بأستاذه الآمدي في هذا النقد ، حيث اتفقا في تعريف الوشاح ، ووصف المرأة في البيت بالقصر والغلظ.

وأما المرزوقي ، فدافع عن أبي تمام ووجد له مخرجاً ، فقال : " الذي قصده أبو تمام بكلامه معنيان : أحدهما غلظ الساقين فتكون الخلاخيل من الاتساع بمقدار غلظهما ، والثاني دقة الخصر حتى لو جعل الخلخال في موضع الوشاح لجال عليه؟ وقد أبطل قول الراد عليه"(١).

كما علق المحقق على رأي المرزوقي ، بأن المرزوقي هنا "عرض بالآمدي الذي شنع على أبي تمام وقال هذا محال لأن أبا تمام أراد وصفها بدقة الخصر فوصفها بغاية القصر والضئولة ، وذلك لأن الوشاح يأخذ من العاتق فيوشح أحد طرفيه الصدر والبطن ، والآخر الظهر ، حتى ينتهيا إلى الكشح ويلتقيا على الورك، فكيف حال من يجول الخلخال بين عاتقها وكشحها؟ وهل يكون من البشر فضلاً عن أن ينسب إلى الحسن؟ "(٢).

ولكن هذا الكلام الذي نسبه المحقق للآمدي هو نفس الكلام الذي قاله الجرجاني بالحرف الواحد في أثناء تعليقه على البيت في وساطته – وقد استشهدنا به سابقاً – وإنما كلام الآمدي يختلف في الموازنة عن هذا الكلام ، وإن كان يتفق معه في المضمون – فهل وهم المحقق أم أن هذا كلام الآمدي في كتاب آخر غير الموازنة وقد نقله عنه الجرجاني؟

ويكمل المحقق كلامه ، فيقول : "والذي نقله التبريزي عن المرزوقي في الرد عليه منقول من كتاب "الانتصار من ظلمة أبي تمام" للمرزوقي ، وبقية كلامه : وقول العائب الوشاح يأخذ من العاتق وينتهي بالكشح عدل فيه عن النصفة لأن الذي

---

(١) ديوان أبي تمام ١١٥/٣.

(٢) المصدر نفسه ١١٥/٣ – هامش (٥).

يقع في الوهم من كلام أبي تمام غير ما ذكره. بل يسبق إلى الخاطر أنه لو جعل الخلخال في مقر الوشاح ومنتهاه لدار عليه ولم يضق عنه"[1].

وكلام المرزوقي أقرب إلى الصواب والعقل ؛ لأنه أقنع الخصوم بالحجة الواقعية والبرهان العقلي.

وبهذا يتضح لنا أن الجرجاني تأثر بالآمدي في ذكر الجيد من شعر أبي تمام والسخيف منه ، فهو "قد أخذ عن الآمدي الكثير منها وإن لم يذكر ذلك ، بل قد نراه يرد على صاحب الموازنة في تفسير لمعنى "الأيم" التي وردت في بيت أبي تمام :

حلت محل البكر من معطي وقد زفت من المعطي زفاف الأيم

.... وهو يرد دون أن يورد اسم الآمدي وإنما يصفه (ببعض من اعترض على أبي تمام)، وهذا يقطع بأن الجرجاني قد اعتمد على الموازنة في نقده لأبي تمام"[2].
وتأثره واضح في كثير من التعليقات التي كان يتفق فيها مع أستاذه الآمدي.

وتختلف رؤية النقد الحديث لهذا البيت عن رؤية النقد القديم ، فإذا كان النقاد القدامى رأوا في هذه المرأة مخلوقاً مشوهاً يشبه الجعل في الصغر والضؤولة ، أو إنسان مريض بداء الفيل لضخامة الساق ، فإن النقد الحديث يرى أن هناك حقيقة شعرية كامنة في البيت ولم يصل إليها النقد الحديث ، وهذه الحقيقة الشعرية "تنبعث من كلمة "الهيف" التي تتجاوز الدلالة على النحول لتستحيل إلى ضرب من الاستعلاء على المادة والتخلص منها والسمو إلى عالم الروح ، ومن خلال ذلك لا تظل المرأة مجرد امرأة من النساء وإنما تؤول إلى كائن روحاني غامض لاندرك منه إلا أنه من الهيف ، وغرسه في صيغة الجمع هذه تضفي عليه غرابة وغموضاً من شأنهما أن

---

(١) ديوان أبي تمام ١/١١٥ – هامش (٥).

(٢) النقد المنهجي عند العرب ، د. محمد مندور ص ٢٨١.

يوغلا به في التجرد من الحسية ، ومـن هنـا تـأتي لـه الانطـلاق خـارج القيـود التـي تتمثل في الوشح والخلاخل فينسل بعيداً عنها"[1].

وهذه رؤية جيدة لمثل هذه المعاني الغامضة التـي لا ترضـى بعـالم الواقـع ، وإنما تهيم في عالم الرؤى والخيالات ، وتسبح بعيداً في عالم الشـعر الروحـاني ممـا يزيد الشعر بهجة وقرباً من ذوي النفوس الشفافة !.

٤ ـ الاستعارات القبيحة في شعر أبي تمام :

نظر النقاد في شعر أبي تمام ، فوجدوه مخالفاً للعرف العربي ؛ فنقـدوه نقـداً مراً ، ولأن "شعر أبي تمام كمـا قيـل قـد سـبق عصـره وخـرج فـي كثير منـه علـى المألوف من عمود الشعر العربي كان من الطبيعي أن يلقى مقاومة شـديدة شـأن كـل تجديد ، فقد هاجمه كثير من أقرانه ، كما ظلمه كثير من النقاد فـي عصـره ، بـل إن الخصومة حول شعره كانت أشد بعد عصره"[2].

وكان من النقاد الذين تحاملوا على أبي تمام ، القاضي الجرجاني ؛ فقـد ردد أقوال سابقيه ومعاصريه في أبي تمام – في كثير من الأحيان – وانفرد بذوقـه الـذي لا يختلف عن أذواقهم في مقياس جودة الشعر حينذاك في أحيان أخرى.

ومن المآخذ التي أخذها على أبي تمـام سـوء اسـتعاراته ممـا أدى إلـى فسـاد المعنى والإحالة والغموض ، فجمع في وسـاطته عـدة اسـتعارات وأشـار إلـى قبحهـا وسوء استخدامهـا ، وما جرته على المعنى وعلى الشعر من فساد وخلل.

---

(١) شعر أبي تمام ، د. سعيد مصلح ص ١٩٠.

(٢) مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – العدد الأول رجب ١٤٠٩هـ فبراير ١٩٨٩م مقال بعنوان : الصورة البلاغية في شعر أبي تمام ، د. عبد العزيز بن عبد الرحمن الشعلان ص ٢٣٤.

ولم يفهم الجرجاني ومعاصروه الغرض الحقيقي الخفي وراء استعارات أبي تمام ، فالاستعارة هي "جوهر شعر أبي تمام ، وتعد من أساليب الرمز في التعبير الأدبي بل لعلها أقوى تلك الأساليب فالحقيقة منها خفية ، والمعنى المراد مستور بحجاب ، والإشارة إليه تحتاج إلى فطنة وذكاء ، والحق أن الرمز يجري في أمور كثيرة كالتشبيه والكناية ، والإيجاز والمبالغة وغيرها"(١).

ويرى بعض النقاد أن الاستعارة الرديئة تؤدي إلى فساد اللغة ، ومن هؤلاء الآمـدي ، والجرجاني ، فالآمدي يرى أن أبا تمام "يميل إلى الصنعة والمعاني الغامضة التي تستخرج بالغوص والفكرة ولا تلوي على غير ذلك"(٢).

وأما الجرجاني ، فيراه قد فارق الطبع ؛ وكان ذلك سبباً في "قلة الحلاوة ، وذهاب الرونق ، وإخلاق الديباجة ، وربما كان ذلك سبب لطمس المحاسن .... فإنه حاول من بين المحدثين الاقتداء بالأوائل في كثير من ألفاظه ، فحصل منه على توعير اللفظ ، وتبجح في غير موضع من شعره .... فتعسف ما أمكن ، وتغلغل في التصعب كيف قدر .... حتى اجتلب المعاني الغامضة وقصد الأغراض الخفية ، فاحتمل فيها كل غث ثقيل ، وأرصد لها الأفكار بكل سبيل فصار هذا الجنس من شعره ، إذا قرع السمع لم يصل إلى القلب إلا بعد إتعاب الفكر ، وكد الخاطر والحمل على القريحة ، فإن ظفر به فمن بعد العناء والمشقة"(٣).

فمن الاستعارات المعيبة من شعر أبي تمام عند القاضي الجرجاني ، إكثار أبي تمام من ذكر "الأخدع" ، والأخدع ، كما هو معروف عند علماء اللغة : عرق في العنق ، وقد ثناه أبو تمام ، وجمعه ، وأفرده في كثير من استعاراته فكانت الاستعارة معيبة من هذا الجانب.

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤٢.

(٢) الموازنة ٥/١.

(٣) الوساطة ص ١٩.

قال القاضي الجرجاني في ذلك : "وقد أولع أبو تمام بذكر الأخدع ؛ فردده في عدة أبيات لم يوفق إلا في واحد منها"[1].

ثم بدأ بذكر السيء منها ، فقال:

قال أبو تمام:

سأشكر فرجة اللبب الرخي   ولين أخادع الزمن الأبي[2]

وقال:

يا دهر قوم من أخدعيك فقد   أضججت هذا الأنام من خرقك[3]

وقال:

فضربت الشتاء في أخدعيه   ضربة غادرته عوداً ركوبا [4]

ولم يعلق الجرجاني على هذه الأبيات إلا بالمقدمة التي ذكر فيها ولع أبي تمام بذكر الأخدع ، وذكر أنه لم يوفق إلا في واحدة منها - وسأذكرها فيما بعد -.

ولكنه عاد في وساطته فعلق على بيت واحد منها في آخر الكتاب ، فذكر أولاً إفراط أبي تمام في الاستعارة وتعديه فيها ، فقال : "وقد كانت الشعراء تجري على نهج منها من الاقتصاد حتى استرسل فيه أبو تمام ومال إلى الرخصة ، فأخرجه إلى التعدي ، وتبعه أكثر المحدثين بعده ، فوقفوا عند مراتبهم من الإحسان والإساءة ، والتقصير والإصابة"[5].

ثم علق على البيت الثاني الذي يقول فيه أبو تمام:

---

(١) الوساطة ص ٧٠.

(٢) ديوان أبي تمام ٣/٣٥٤.

(٣) المصدر نفسه ٢/٤٠٥. والبيت في الديوان هكذا :

يادهر قوم أخدعيك فقد   أضججت هذا الأنام من خرقك

(٤) المصدر نفسه ١/١٦٦.

(٥) الوساطة ص ٤٢٩.

يا دهر قوم أخدعيك فقد أضججت هذا الأنام من خرقك

بقوله : "فإنما يريد : اعدل ولا تجر ، وأنصف ولا تحف. لكن لما رآهم (الشعراء) قد استجازوا أن ينسبوا إليه الجور والميل ، وأن يقذفوه بالعسف والظلم ، والخرق والعنف ، وقالوا : قد أعرض عنا ، وأقبل على فلان ، وقد جفانا وواصل غيرنا ، وكان الميل والإعراض إنما وقع بانحراف الأخدع وازورار المنكب ، استحسن أن يجعل له أخدعاً ، وأن يأمر بتقويمه. وهذه أمور متى حملت على التحقيق ، وطلب فيها محض التقويم أخرجت عن طريقة الشعر ، ومتى اتبع فيها الرخص ، وأجريت على المسامحة، أدت إلى فساد اللغة ، واختلاط الكلام. وإنما القصد فيها التوسط والاجتزاء بما قرب وعرف والاقتصار على ما ظهر ووضح"[1].

فالجرجاني يعيب استعارة أبي تمام لفظة (الأخدع) للدهر ، ويرى أن الشعراء إنما استعاروا له أشياء أخرى كالميل والإعراض والازورار ، ولم يرد في أشعارهم (الأخدع) وهذا ميل وتعد من أبي تمام ؛ لأنه أفسد المعنى بهذه الاستعارة ، وخرج عن المعروف القريب إلى البعيد الغريب.

والجرجاني هنا متأثر بالآمدي في نقده لهذا البيت ، إذ نرى الآمدي يعيب هذه الاستعارة ، بل يقول : إنها في غاية القباحة والهجانة والبعد عن الصواب ، ويعلل هذا بقوله : "فأي ضرورة دعته إلى الأخدعين ، وقد كان يمكنه أن يقول "قوم من اعوجاجك" أو "قوم من معوج صنعك" أو : يا دهر أحسن بنا الصنيع ، لأن الأخرق هو الذي لا يحسن العمل ، وضده الصنَع"[2].

ويعيب الآمدي إتيان المحدث بالأشياء الغريبة ؛ لأنه فيما يرى – لايصدر عن طبع أصيل ، بخلاف الأعرابي ، ولأن المحدث كان يكثر من مثل هذه الأشياء ،

(١) المصدر نفسه ص ٤٣٣.

(٢) الموازنة ٢٧١/١.

ولم يقتصر – كما اقتصر الأعرابي – على البيت والبيتين ، يقول : "وإنما كان يندر من هذه الأنواع المستكرهة على لسان الشاعر المكثر البيت الواحد والبيتان فيتجاوز له عنه ؛ لأن الأعرابي لا يعول إلا على قريحته ولا يعتقد إلا بخاطره ، ولا يستقي إلا من قليبه ، فأما المتأخر الذي يطبع على قوالب ، ويحذو على أمثلة ، ويتعلم الشعر تعلماً ، ويأخذه تلقنا : فمن شأنه أن يتجنب المذموم منه ، ولا يتبع من تقدمه إلا فيما استحسن منهم ، واستجيد لهم ، واختير من كلامهم .... فإن الشاعر قد يعاب أشد العيب إذا قصد بالصنعة سائر شعره ، وبالإبداع جميع فنونه"[١].

أما البيتان الأول والثالث فلم يعلق عليهما الجرجاني إلا بالمقدمة السابقة ، وأما الآمدي فقد علق على الأول منهما بقوله : "وأما قول أبو تمام "ولين أخادع الدهر الأبي" فأي حاجة دعته إلى الأخادع حتى يستعيرها للدهر ، وقد كان يمكنه أن يقول : ولين معاطف الدهر الأبي ، أو لين جوانب الدهر ، أو خلائق الدهر ، كما تقول : فلان سهل الخلائق ، ولين الجانب ، وموطأ الأكناف ، ولأن الدهر قد يكون سهلاً وحزناً وليناً وخشناً على قدر تصرف الأحوال فيه ؛ فإن هذه الألفاظ كانت أولى بالاستعمال في هذا الموضع. وكانت تنوب له عن المعنى الذي قصده ويتخلص من قبح الأخادع ؛ فإن في الكلام متسعاً"[٢].

ويتفق الجرجاني والآمدي في استهجان لفظة (الأخدع) في استعارتها للدهر لا لذاتها ، وقد ضرب الجرجاني مثلاً للاستخدام الحسن لها عند أبي تمام في قوله : "وقد أحسن في قوله:

وماهو إلا الوحي أوحد مرهف ... تميل ظباه أخدعي كل مائل

وقد ذكره (الأخدع) البحتري مدحاً ، فقال:

عطف ادكارك يوم رامة أخدعي ... شوقاً وأعناق المطي قواصد

(١) المصدر نفسه ٢٥٩/١ ، ٢٦٠.

(٢) الموازنة ٢٦٩/١ ، ٢٧٠.

فوقع من الحلاوة والحسن في الموقع الذي تراه"[١].

وقال الآمدي "وإنما قبح الأخدع لما جاء به (أبو تمام) مستعاراً للدهر ، ولو جاء في غير هذا الموضع أو أتى به حقيقة ووصفه في موضعه لما قبح ، نحو قول البحتري : وأعتقت من ذل المطامع أخدعي.

ونحو قوله:

ولا مالت بأخدعك الضياع.

ومما يزيد على كل جيد قول الفرزدق:

وكنا إذ ا الجبار صعر خده ضربناه حتى تستقيم الأخادع"[٢].

فالآمدي هنا متفق مع الجرجاني في قبح استعارة لفظ (الأخدع) للدهر ، وفي حسن استعارتها لغير الدهر ، أو مجيئها على الحقيقة ، غير أن الآمدي هنا "لايبين سبب قبولها هنا (عند البحتري والفرزدق) ، بل يورد أمثلة من البحتري ومن الفرزدق دون أن يوضح الفروق بين هذه الاستعارات المختلفة مع أن الأمر واضح. فالأخادع عند هذين الشاعرين تفيد معنى الكبرياء ، والاستعارة قائمة على هذا المعنى .... واستعارة أبي تمام لاتحمل شيئاً من هذا المعنى ، فهو يدعو الدهر إلى أن يقوم من أخدعيه لأن الأنام قد ضجوا من خرقه "ولم يقل من كبريائه" ، فالأخدعان هنا رمز لسوء التصرف وتعوج الصنع ، وهذه إحالة وخروج بالألفاظ عما توحي من معنى تخصصت به. هذا تكلف من أبي تمام وصنعة فاسدة"[٣].

وربما عاب هؤلاء النقاد هذه الاستعارة ، لعدم وجود الشبه بين المشبه والمشبه له الموجود في أصل الاستعارة ، وهذا ما حدا بعبد القاهر الجرجاني أن يشترطه في الاستعارة ، حيث قال : "اعلم أن الاستعارة كما علمت تعتمد التشبيه

---

(١) الوساطة ص ٧١.

(٢) الموازنة ٢٧١/١.

(٣) النقد المنهجي عند العرب ، د. محمد مندور ص ١٤٣ ، ١٤٤.

أبداً.... وإذا كان الأمر كذلك فالذي يستحق بحكم هذه الجملة أن يكون أولاً من ضروب الاستعارة أن يرى معنى الكلمة المستعارة موجوداً في المستعار له من حيث عموم جنسه على الحقيقة ، إلا أن لذلك الجنس خصائص ومراتب في الفضيلة والنقص ، والقوة والضعف ، فأنت تستعير لفظ الأفضل لما هو دونه"[١].

وأما البيت الثالث ، فلم يعلق عليه الجرجاني أيضاً إلا بالإساءة في الاستعارة، وخالفه الآمدي ، حيث جعل الاستعارة أقرب إلى الصواب من سابقتيها فقال : "فأما قوله "فضربت الشتاء في أخدعيه" فإن ذكر الأخدعين هنا – على قبحها- أسوغ ؛ لأنه قال "ضربة غادرته عودا ركوبا" وذلك أن العود المسن من الإبل والبعير أبداً يُضرب على صفحتي عنقه فيذل ؛ فقربت الاستعارة هنا من الصواب قليلاً "[٢].

ونرى التبريزي يرضى عن هذه الاستعارة في البيت الأول ويسميها كناية ، فيقول : "ووصف الدهر بلين الأخادع ، لأن الرجل إذا وصف بالإباء قيل هو شديد الأخدع ، وإنما فعلوا ذلك لأن "الأخدع" عرق عظيم ، فكنوا به عن الذل والعز ، قال الفرزدق :

وكنا إذا الجبار صعر خده ضربناه حتى تستقيم الأخادع"[٣].

وهذا كلام جيد ، فالأخدع عرق ، يعبر به عن الكبرياء ، ولينه يدل على الذل ، وشدته تدل على الكبرياء والمنعة والعزة.

---

(١) أسرار البلاغة في علم البيان – عبد القاهر الجرجاني ص ٥٧ – تعليق وتنقيح محمد عبد العزيز النجار – مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده – القاهرة ١٣٩٧هـ – ١٩٧٧م.

(٢) الموازنة ٢٧١/١.

(٣) ديوان أبي تمام ٣٥٤/٣.

وسكت عن التعليق على البيت الثاني ، بينما علق على البيت الثالث بقوله :
" الأخدعان : عرقان في العنق ، يقال للرجل إذا كان أبياً صعباً إنه لشديد الأخدع ، وقد استقام أخدعه ، قال الشاعر :

قد كنت أشوس في المقامة سادرا   فنظرت قصدي واستقام الأخدعا"[1].

ويجمع المحقق أقوال بعض النقاد حول هذا البيت ، وهي ما بين استحسان واستهجان فيقول : "قال الصولي في شرحه : يقول : مضيت على هوله ولم تباله ، وضرب لذلك مثلاً فقال : "فضربت الشتاء في أخدعيه" وغادرته أي تركته ، و "عودا" أي جملاً مسناً حمل طويلا ، و "ركوبا" مذللا ، يريد فصيرت الشتاء سهلاً. وقال الخارزنجي : يعني ضربت الشتاء بعدد أعددتها له من الدفء حتى هان عليك ولم يصعب ، فصار ذلولا منقاداً لا يلتوي عليك. وقال ابن المستوفي ، هذا من قبيح استعاراته وشنيع عباراته"[2].

وينضم ابن سنان الخفاجي لحزب المعارضين لهذه الاستعارة ، ويرى أنها من أقبح الاستعارات ، وأن أبا تمام لم يوفق فيها ؛ لجهله بوجهها ، فيقول معلقاً على الأبيات الثلاثة : "فإن أخادع الدهر والشتاء من أقبح الاستعارات ، وأبعدها مما استعيرت له ، وليس بقبح ذلك خفاء ، ولا يعرف أبو تمام الوجه الذي لأجله جعل للشتاء والدهر أخادع إلا سوء التوفيق في بعض المواضع"[3].

ولا يخفى تحامل ابن سنان على أبي تمام ؛ حيث يعيب استعاراته ويقبحها دون أن يبرر لهذا الاستهجان إلا بجهل أبي تمام وعدم توفيقه في تلك الاستعارات.

---

(١) المصدر السابق ١٦٦/١.

(٢) المصدر السابق ١٦٦/١ – هامش (١).

(٣) سر الفصاحة ، ابن سنان الخفاجي ص ١١٦.

وفي الحق أن هؤلاء قد ظلموا أبا تمام ؛ لعدم معرفتهم هم بوجوه الاستعارة التي أرادها أبو تمام ، وإنما قبحوها ؛ لمخالفة العمود الشعري المعروف ، وعدم الوصول لمراد أبي تمام من وراء هذه المعاني الكامنة في بعد الاستعارات وغرابتها.

وقد أعجبني تعليق الدكتور شوقي ضيف الذي تغلغل إلى أعماق الشاعر وفهم مراده من هذه الاستعارات ، فقال معلقاً على البيت الأخير : "وأنكر (الآمدي) إنكاراً شديداً أن يجعل للشتاء أخدعاً في قوله يصور انتصار أبي سعيد الثغري في بعض معاركه مع الروم وقد تراكمت الثلوج :

فضربت الشتاء في أخدعيه ضربة غادرته عوداً ركوبا

والبيت بدون شك طريف ، إذ جعل أبو تمام الشتاء بوعوثة ثلوجه فرساً جامحاً ، وجعل انتصار أبي سعيد فيه كأنه ضربة سددت إليه ، فقبضت على جموحه وشراسته وجعلته سهل الانقياد ذلولاً. ولكن الآمدي لا يعجب بالبيت لأن فيه الاستعارة المكنية التي يرى فيها خروجاً على عمود الشعر العربي"[(١)].

ثم يدافع عن أبي تمام ، ويبين مذهبه المتعمق في الشعر ، وعدم استجابة نقاده لهذا المذهب الجديد ، فيقول : " والحق أن هذه الصور جميعاً التي وقف عندها الآمدي ليست قبيحة ، إنما كل ما يمكن أن يقال أن طائفة منها غير مألوفة ، وأن أبا تمام قد ينسيه تعمقه في مذهبه وشغفه بالصور والتصوير ما قد يكون في بعض رسومه من صور غريبة ؛ وهي إن دلت على شيء فإنها تدل على أنه كان يعجب إعجاباً شديداً بما يتخذه في حرفته من أدوات فنية جديدة ، وهي جميعها أدوات كان

---

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، د. شوقي ضيف ص ٢٣٧.

يريد بها أن يزخرف الفن ويزينه ، غير أنه كان يقع من حين إلى حين على زخرف غريب غير مألوف ، فيتشبث به خصومه ويبالغون في الإزراء عليه"[١].

وهذه الاستعارة التي عابها الآمدي والنقاد من بعده ليست على ظاهرها ، فالأخدعان لا يقتصر معناهما على عرقين في صفحتي العنق ، وإنما يجب أن ننظر لما يكمن فيهما من معنى خفي يتناسب وهذه الاستعارة اللطيفة التي أكثر منها أبو تمام وشدد النقاد عليه فيها.

فهذان الأخدعان "لا يكفي لإدراكهما أن يقال بأنهما عرقان في جانبي العنق.... وإنما للأخدع ارتباط آخر تتوثق فيه العلاقة بينه وبين الخداع والتغرير يتراءى في السراب الخيدع والدينار الخادع والحرب الخدعة والقول الخيدع ، وقال الخليل: الإخداع إخفاء الشيء.. والإحساس بغلبة الدهر وتسلطه لا ينفك عن الإحساس بالانخداع والغرور.. من هذا كله يكون بإمكاننا أن ندرك ما يفجره لفظ الأخدع في الدهر من طاقات كامنة تترامى بين العزة والخداع وتتوتر فيهما العلاقة لتنتهي بالدهر إلى ذلك الخرق الذي ضج منه الأنام"[٢].

هذا هو المفهوم الحديث الذي يجب أن ننظر من خلاله لاستعارات أبي تمام الغريبة والغامضة ، إذ المقاييس القديمة لا تستطيع أن تكشف لنا هذه الجوانب المضيئة التي عناها الشاعر ، واستطاع بعبقريته وتفننه أن يتوغل في داخل هذه الصور ؛ ليبرز لنا من خلالها دخائل الأشياء وعلاقات الأجزاء بعضها ببعض حتى لو بدت غريبة أو غير مألوفة لنا.

وعاب عليه الجرجاني عدة استعارات ، إلا أنه علق عليها تعليقاً عاماً ولم يبين وجه القبح فيها ؛ فقال : "فإذا سمعت بقول أبي تمام:

باشرت أسباب الغنى بمدائح ... ضربت بأبواب الملوك طبولا

---

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٢٣٨.

(٢) شعر أبي تمام ، د. سعيد مصلح ص ٢٢٦.

وبقوله :

لها بين أبواب الملوك مزامر ... من الذكر لم تنفخ ولا هي تزمر

وبقوله :

إذا مـــا الدهر جرجرت أيا ... ديه فـغــشت الدنيـــا ظــلالا

وبقوله :

يا دهر قوم من أخدعيك فقد ... أضججت هذا الأنـــام من خرقك

وبقوله :

إلى ملك في أيكة المجد لم يزل ... على كبد المعروف من نيله برد

وبقوله :

كأنني حين جردت الرجاء له ... عضب صببت به ماء على الزمن

فاسدد مسامعك ، واستغش ثيابك ، وإياك والإصغاء إليه ، واحذر الالتفات نحوه ؛ فإنه مما يصدئ القلب ويعميه ، ويطمس البصيرة ، ويكد القريحة"[1].

وكان بودنا أن يضع الجرجاني أيدينا على مواضع العيوب في هذه الأبيات ، بدلاً من أن يصفها بهذا الوصف المزري دون مبرر ، وإنما هو التعصب ، والتحامل على شاعر عبقري فذ ، كسر قيود القديم ، وجاء بجديد غريب على أذواق هؤلاء النقاد القدمـــاء ، الذين لا يرون خيراً في الجديد.

ومما عابه الجرجاني على أبي تمام من استعاراته ، قول أبي تمام:

شاب رأسي وما رأيت مشيب الـ ... رأس إلا من فضل شيب الفؤاد [2]

---

(١) الوساطة ص ٤٠ ، ٤١.

(٢) ديوان أبي تمام ٣٥٧/١.

فقد علق الجرجاني على هذا بقوله : "وهو مما استقبح من استعاراته ، وزعموا أنه لما أنشد ذلك بحضرة أحمد بن أبي دؤاد قال من حضر : وكيف يشيب الفؤاد ، فقال ارتجالاً :

وكذاك القلوب في كل بؤس ونعيم طلائـــع الأجســـاد"[1].

فلم يضع أيدينا على موطن القبح في الاستعارة ؛ وإنما اكتفى بالحكم عليها بالقبح – ومن العجيب أن يذكر بيتاً للمتنبي في هذا الشأن ولم يعبه كما عاب أبا تمام، مما يدل على تحامله على أبي تمام ، قال : "فقال أبو الطيب ونقل شيب الفؤاد إلى الكبد :

إلا يشب فلقد شابت له كـبـد شيباً إذا خضبته سلوة نصـــلا"[2].

ومن عجيب الأمر أن يخالف الجرجاني أستاذه الآمدي هذه المرة ، ويحكم على هذه الاستعارة بالعيب المطلق دون التعليل أو التحليل ، بينما نجد الآمدي يعجب بها ويرد قول العائبين لها ، يقول الآمدي : "وقد عابه قوم بقوله : "شيب الفؤاد". وليس عندي بعيب ؛ لأنه لما كان الجالب للشيب القلبُ المهموم نسب الشيب إليه على الاستعارة. وقد أحسن عندي ، ولم يسيء"[3] .

وهذا دليل اختلاف الأذواق عند الاحتكام إليها ، وترك الضوابط والأسس النقدية التي تنتمي إلى عمود الشعر الذي ارتكز عليه معظم النقاد القدامى ، كما يدل على تحامل الجرجاني على أبي تمام ؛ حيث لم يبين وجه الإساءة فيها ، وإنما حكم عليها حكماً عاماً ، بينما نجده يذكر بيت المتنبي دون تعليق ، وهو شبيه به في الاستعارة مع تغيير المسمى.

---

(١) ، (٢) الوساطة ص ٢٥٤.

(٣) الموازنة ٢/٢١٣.

وأما التبريزي ، فلم يعلق على هذا البيت بالاستحسان أو الاستهجان ، وإنما اكتفى ببيان المغزى منه ، فقال : "أي ما شبت للكبر ، إنما ذلك للهموم"(١).

وقد تناقل النقاد هذا العيب ، فرددوه في كتبهم ، ومنهم من يعلق وينقد ويفند، ومنهم من يعمم ، فمن النوع الأول ، قول المرزباني على لسان ابن المعتز في رسالته لمحاسن أبي تمام ومساوئه : "وقد سبق الناس إلى عيب هذا البيت قبلي ، وهو من خسيس الكلام . وقال :

شاب رأسي وما رأيت مشيب الـ   رأس إلا من فضل شيب الفؤاد

فيا سبحان الله : ما أقبح مشيب الفؤاد ! وما كان أجرأه على الأسماع في هذا وأمثاله"(٢).

وكأنه رأى في الخروج على المألوف جرأة وخسة، حتى ولو كان إبداعاً وروعة !.

ومن الصنف الثاني من النقاد ، القاضي الجرجاني كما تقدم.

وقد كان قصور النقاد في فهم استعارات أبي تمام لعدة أسباب ، منها : أن النقاد والبلاغيين القدماء قد جمدوا عند المعنى الوصفي للكلمة ، ولم يدركوا أن الألفاظ تحمل في طياتها إمكانيات للمعاني لا تتحدد إلا في السياق ، وأن هذا المعنى عبارة عن محصلة لتشابك العلاقات بين ألفاظ التركيب ، وأن على الشاعر أن يبدأ عمله بهدم الدلالة المعهودة في اللفظ ؛ ليبعث فيه الحياة مرة أخرى بتركيب لغوي جديد - ومنها : اعتبارهم الخيال الذي هو أصل الصورة تالياً للمعنى العقلي وأخذ الاستعارات على أنها نقل للفظ في حدوده العقلية وتجزئة الاستعارة على وجه لا

---

(١) ديوان أبي تمام ٣٥٧/١.

(٢) الموشح ، للمرزباني ص ٣٤٨.

تتضح فيه وظيفتها في الشعر بحيث لا تخرج عن كونها مجالاً لتحسين المعنى الأصلي وتزيينه ، أو التدليل عليه وتبريره[1].

وعلى الرغم من إبداع أبي تمام ، إلا أن عصره كان يرفض تلك المقاييس التي بني عليها شعره ؛ لأن النقاد كانوا يقيسون شعره بالأسس التي عرفوها ، وظنوا أنهم بهذا العمل يحافظون على الشعر وقواعده ، فخصوم أبي تمام "ظلوا يزعمون أنه لا يضيف جديداً إلى الفن إلا صعوبة وعسراً في التعبير ، وتلوموه من أجل ذلك كثيراً ولم يلتفتوا إلى أنه كان يحول في مجرى الشعر العربي وفي منابعه ، فليست المسألة مسألة صعوبة أو غرابة في التعبير والتصوير كما ظن الآمدي وأمثاله ، وإنما هي مسألة اتجاه جديد في الشعر"[2].

وعيب النقاد في ذلك العصر أنهم لم يفهموا المغزى من هذا الشعر الجديد ؛ ولهذا لم يرضوا بمناقشة أبي تمام "في أصول هذا العمل ، وإنما ناقشوه في أسلوب ملتو أو عبارة غريبة أو صورة غير مألوفة ، ناقشوه في ظاهر العمل وتركوا باطنة، وما ينساب فيه من تلك الينابيع الفلسفية والثقافية التي تلون شعره بألوان خاصة"[3].

وبهذه المقاييس نظر النقاد لاستعارات أبي تمام ، فرأوا فيها خروجاً على العرف والعادة ، فعابوها ، وعلقوا عليها تعليقات لا تليق بهذا المبدع الكبير ، الذي خبر دقائق الأشياء وعرف دقة العلاقات بين الأجزاء ، فركب صوره منها تركيباً فنياً بديعاً ، إلا أنهم لم يفطنوا لذلك.

---

(١) انظر : شعر أبي تمام ، د. سعيد مصلح ص ٢٠٤ ، ٢٠٥.

(٢) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، د. شوقي ضيف ص ٢٤٣.

(٣) المرجع نفسه ص ٢٤٣ ، ٢٤٤.

وكان الجرجاني واحداً من هؤلاء النقاد اللذين ضربوا على وتر الرفض والاستهجان بمبرر وبدون مبرر في أحيان كثيرة ، يردد قول الآمدي آناً ، ويرفض لأجل الرفض آناً آخر ، فظلم أبا تمام وتجنى على بدائع شعره.

٥ - البديع وإغراق أبي تمام فيه :

كثيراً ما ردد النقاد هذه التهمة ، وألصقوها بأبي تمام ، فهم قد ذكروا أن أبا تمام أولع بالبديع الذي كان طريقة مسلم بن الوليد ، ولكن أبا تمام أفرط فيه واتخذه مذهباً وتفنن فيه ؛ فكان ذلك سبباً في إساءة شعره.

وقد حدا هذا بابن المعتز أن يؤلف كتابه "البديع" ليعلم أصحاب الصنعة أمثال بشار ومسلم وأبي نواس أنهم سبقوا إلى هذا الفن ، وذكر أن القدماء كانوا يذكرون منه البيت والبيتين "ثم إن حبيب بن أوس الطائي من بعدهم شغف به حتى غلب عليه وتفرع فيه وأكثر منه فأحسن في بعض ذلك وأساء في بعض وتلك عقبى الإفراط وثمرة الإسراف"[١].

وتتبع ابن المعتز البديع عند الشعراء القدامى والمحدثين ، وضرب الأمثلة للأقسام التي ذكرها من أشعارهم ، وفيهم أبو تمام ، وذكر مواطن الحسن والإساءة من ذلك ، مع أنه جعل الاستعارة من البديع – كما فعل كثير من النقاد القدامى.

وعابه الآمدي للسبب الذي عابه من أجله ابن المعتز ، فذكر أن هذا الفن كان موجوداً في أشعار الأوائل ، وإنما كان "يأتي منه في القصيدة البيت الواحد أو البيتان ، على حسب ما يتفق للشاعر ، ويحضر في خاطره ، وفي الأكثر لا يعتمده. وربما خلا ديوان الشاعر المكثر منه ، فلا ترى له لفظة واحدة. فاعتمده الطائي ،

---

(١) البديع ، عبد الله بن المعتز ص١.

وجعله غرضه ، وبنى أكثر شعره عليه ، فلو كان قلل منه .... لكان قد أتى على الغرض ، وتخلص من الهجنة والعيب"[1].

وعدد الآمدي كثيراً من أصناف البديع المستهجنة التي وقع فيها أبو تمام ، وعلل بعضها ، وسكت عن بعض ، وردد بعض كلام ابن المعتز في هذا الشأن.

وأما القاضي الجرجاني ، فنحا نحو هؤلاء النقاد ، وذكر كلاماً قريباً جداً من كلام الآمدي في هذا الموضوع ، فقال : "وقد كان يقع ذلك (أي استخدام البديع) في خلال قصائدها ، ويتفق لها في البيت بعد البيت على غير تعمد وقصد ؛ فلما أفضى الشعر إلى المحدثين ، ورأوا مواقع تلك الأبيات من الغرابة والحسن ، وتميزها عن أخواتها في الرشاقة واللطف ، تكلفوا الاحتذاء عليها فسموه البديع ، فمن محسن ومسيء ، ومحمود ومذموم ، ومقتصد ومفرط"[2].

ويخص الجرجاني أبا تمام بالإكثار من هذا الفن ؛ فجعله سبباً في غثاثة شعره ، وضعف شاعريته ، فيقول : "وما تكاد قصيدة من شعره تسلم من أبيات ضعيفة ؛ وأخرى غثة ، لاسيما إذا طلب البديع وتتبع العويص"[3].

والجرجاني كغيره من النقاد السابقين الذين جعلوا الاستعارة من فنون البديع، فتتبع استعارات أبي تمام ، وعاب جزءاً كبيراً منها ، وعلق على بعضها وسكت عن البعض الآخر – وقد بينا ذلك في الفقرة السابقة فلاداعي لتكرارها مرة أخرى.

أما ألوان البديع المعروفة من جناس وطباق ومقابلة وغيرها ، فلم يتحدث الجرجاني سوى عن نوعين منها ، وهما الجناس والطباق ، وذكر أقسام كل نوع ، وضرب الأمثلة لها من شعر أبي تمام وغيره ، وهي أمثلة للحسن والإجادة.

---

(١) الموازنة ٢٨٤/١ ، ٢٨٥.

(٢) الوساطة ص ٣٤.

(٣) المصدر السابق ص ٦٩ ، ٧٠.

أما الرديء من بديع أبي تمام ، فلم يفرد له بابا – كما فعل الآمدي من قبله– وإنما نثر بعض الأبيات المحتوية على البديع في ثنايا شواهد سقطات أبي تمام ولم يعلق عليها بالإفراط في البديع.

فمن أبيات البديع التي أخذها الجرجاني على أبي تمام ، قول أبي تمام:

خشنت عليه أخت بني الخشين	**وأنجح فيك قول العاذلين**
ألم يقنعك فيه الهجر حتى	بكلت لقلبه هجراً بيين [1]

فلم يعلق على البيت الأول الذي هو موطن الشاهد إلا بقوله في التقدمة لهذين البيتين: "وأي شعر أقل ، وأبعد من أن يرف عليه ريحان القلوب من قوله : (وذكر البيتين)"[2].

وبعد نهاية البيتين علق عليهما بكلمة بعيدة عن البيت الأول ، فقال : "فهل رأيت أغث من "بكلت" في بيت نسيب !"[3].

وأما الآمدي ، فقد ذكره في جملة من التجنيس المستهجن ، وعلق على جميع الأبيات التي أوردها بقوله : "فهذا كله تجنيس في غاية البشاعة والركاكة والهجانة"[4].

وجعله المرزباني من الابتداءات المذمومة ؛ لأنه لا يشبه خطاب النساء في مغازلتهن ، وإنما أوقعه في ذلك محبته للتجنيس ، ورأى أنه بهجاء النساء أولى[5].

وعلق عليه التبريزي بقوله : "وبنو خشين" قبيلة من اليمن ، وإنما أراد

---

(١) ديوان أبي تمام ٢٩٧/٣.

(٢) الوساطة ص ٢٠.

(٣) المصدر نفسه ص ٢١.

(٤) الموازنة ٢٨٦/١.

(٥) انظر : الموشح ، للمرزباني ص ٣٤٩ ، ٣٥٠.

التجنيس بهذا الاسم ، وقيل خشين بن لأي بن عصيم بن شمخ بن فزارة"[1].

ولست أرى في هذا الجناس قبحاً ، بل هو من مشاكله اللفظ للمعنى ، فالخشونة في المعاملة تتجانس مع "بني خشين" ، وقصد بها أبو تمام تمنع المحبوبة التي هي من "بني خشين" على الحبيب ، فوصفها بالخشونة في المعاملة التي هي ليست من طبع الأنثى إلا في حالات خاصة يستدعيها الموقف !.

وذكر الجرجاني مرة أخرى جملة أبيات من رديء شعر أبي تمام ، وصفها بالتكلف ومفارقة الطبع – مع وجود أبيات فيها تحمل أنواع البديع – وقدم لها بقوله:

"فإن حمل نفسه على التكلف ، وفارق الطبع إلى التعمق أراك مثل قوله :

ألا سبيل ندى إلى سبيل بلــى   لو كنت حيــا لأضحى للندى سبل

وقوله :

لو لم يمت بين أطراف الرماح إذاً   لمات إذ لم يمت من شدة الحـزن

وقوله :

أبعـــد التي ما قبلهــا فبعدهـــا   مقــام لحـر قـلت أنت عجـــول

وقوله :

ذهبت بمذهبـه السماحة فالتوت   فيه الظنـون أمذهب أم مذهب "[2].

فهذه الأبيات تحمل في طياتها أنواعاً من البديـع ، فـالأول فيـه طبـاق "سـبيل ندى ، سبيل بلى" ولكن الجرجاني لم يبينه ولم يقف عليه ، ولم يصفـه إلا بـالتكلف ، مع أن البيت جيد وليس بمعيب.

---

(١) ديوان أبي تمام ٣/٢٩٧.

(٢) الوساطة ص ٧١ ، ٧٢.

وسنقف على بيت واحد من جملة هذه الأبيات ، لشهرته ، ولكثرة وروده في كتب الأدب والنقد والبلاغة ، لنرى نظرة النقاد إلى بديع أبي تمام والحكم عليه من خلال إفراطه في مثل هذا البديع.

والبيت هو قول أبي تمام :

ذهبت بمذهبه السماحة فالتوت فيه الظنون أمذهب أم مذهب [1]

هذا البيت ذكره ابن المعتز في كتابه "البديع" تحت التجنيس المعيب من الكلام والشعر عند المحدثين ، وذكر طائفة من الأمثلة ومنها بيت أبي تمام المذكور دون التعليق عليه[2].

وكذلك الآمدي ، ذكره في موازنته ضمن جملة من الأبيات ، ولكنه لم يخصه بتعليق ، وإنما علق في نهاية الأبيات تعليقاً عاماً بقوله : "فهذا كله تجنيس في غاية البشاعة والركاكة والهجانة"[3].

والبيت في ديوان أبي تمام بشرح التبريزي من قصيدة يمدح بها الحسن بن وهب ويذكر غلاماً أهداه له ، والقصيدة تقع في ثمانية وعشرين بيتاً ، ويحمل الرقم الخامس ، وقد علق عليه التبريزي بنقله قولي المعري والخارزنجي ، فقال عن الأول : "ذهبت بمذهبه" يحتمل وجهين : فتح الميم وضمها ، فإذا فتحت فالمعنى : ذهبت بمذهبه أي طريقته – السماحة ، أي غلبت عليه ، كما يقال ذهب فلان بالمجد أي حازه وصار له ، ومنه قول الأخطل :

ذهبت قريش بالسماحة والندى واللؤم تحت عمائم الأنصار

(١) ديوان أبي تمام ١/١٢٩.

(٢) انظر : البديع ، لابن المعتز ص ٣٥.

(٣) الموازنة ١/٢٨٥ ، ٢٨٦.

وإذا ضمت الميم فالمعنى: ذهبت بثيابه المذهبة. أي أنه يخلعها.... وقوله "التوت فيه الظنون" أي اختلفت ولم تحقق شيئاً واحداً. وقوله : "أمَذهب أم مذهب" يقول : أطريقة هو وخلق أم مذهب ، من قول العامة بفلان مُذهب إذا كان يلج في الشيء ويغرى به"[1].

ونقل التبريزي كلام الخارزنجي ، فقال : "يقول : ذهبت السماحة بمذهبه كل مذهب ، فأخذ من كل حظاً ، فلا يدري أمذهبه مذهب ، أم هو السفر التي تتشعب فيه المذاهب لسعتها وافتتانها في كل فن"[2].

ونقل المحقق كلام المرزوقي ، فقال : "قال المرزوقي : المذهب (بضم الميم) الجنون ، يقال به مذهب. والمعنى أن السماحة قد غلبت عليه واستولت على شمائله وسجاياه ، فهو يفرط فيها ويسرف في لزومها ، حتى قيل على طريقة التشكيك : أهذا خلق ومذهب أم جنون ومذهب"[3].

وقد ورد هذا البيت في كثير من كتب الأدب والبلاغة ، فذكره عبد القاهر الجرجاني عند كلامه عن "التجنيس" ووازن بين هذا البيت وبين كلام آخرين مضعفاً قول أبي تمام ومحسناً الكلام الآخر ، قال : "أما التجنيس فإنك لا تستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعاً حميداً ، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيداً ، أتراك استضعفت تجنيس أبي تمام في قوله :

ذهبت بمذهبه السماحة فالتوت ... فيه الظنون : أمذهب أم مُذهب

واستحسنت تجنيس القائل : "حتى نجا من خوفه ما نجا"

وقول المحدث :

---

(١) ديوان أبي تمام ١/١٢٩.

(٢) المصدر نفسه ١/١٣٠.

(٣) ديوان أبي تمام ١/١٣٠ – هامش رقم (١).

ناظـــراه فيمـــــا جنى ناظراه   أودعاني أمت بما أودعاني"[1].

وبين عبد القاهر الجرجاني السبب الذي من أجله فضل كلام الآخرين على كلام أبي تمام ، فقال : "الأمر يرجع إلى اللفظ ؟ أم لأنك رأيت الفائدة ضعفت عن الأول وقويت في الثاني ؛ ورأيتك لم يزد له بمذهب ومذهب على أن أسمعك حروفاً مكررة ، تروم لها فائدة فلا تجدها إلا مجهولة منكرة ، ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها ، ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها ، فبهذه السريرة ، صار التجنيس – وخصوصاً المستوفي منه المتفق في الصورة – من حلي الشعر – ومذكوراً في أقسام البديع"[2].

فعبد القاهر الجرجاني قد ظلم أبا تمام بهذا الحكم ؛ لأنه رأى أن جناسه معيب ؛ لتكرار اللفظ بدون فائدة – والحقيقة أن هذا الجناس ليس معيباً ؛ لما فيه من الإيهام الظاهري بشيء وقصد شيء آخر خفي عن النظرة العابرة ، واحتاج إلى طول تأمل ، لاستخراج المعنى الحقيقي من مذهب ومُذهب ولكن النقاد والبلاغيين تناقلوا هذا البيت وكرروا كلام بعضهم البعض لما قيل عن بديع أبي تمام المعيب.

وعلق عليه ابن المعتز في رسالته التي رواها المرزباني في موشحه ، بقوله: "يريد غلبت على مذهبه السماحة ؛ فكأن فيها مذهباً يظنه بعض الناس"[3].

والواقع أن هذا البيت يحوي إبداعاً خفياً ، لم يصل إليه نقادنا السابقون الذين وزنوه بميزان العمود الموروث ، ولم يتوغلوا داخل خباياه ، ويغوصوا عما فيه من حس راق ، وإبداع منقطع النظير ، فأبو تمام في هذا البيت الذي عابه عليه النقاد "إنما يحيا في لفظ "ذهب" فيترامى به هذا اللفظ وما ينطوي عليه من الفناء والتلاشي

---

(١) أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني ص ١٧.

(٢) المصدر السابق ص ١٧.

(٣) الموشح ، للمرزباني ص ٣٤٩.

إلى تلك الثياب المذهبة التي تذهب من بين يدي الكريم حينما يمنحها لسائله والذهب يقتضي معنى الذهاب والفناء ، ثم تلتوي به الظنون لتفضي به إلى الجنون يتراءى في لفظ المذهب الذي تذهب القصص إلى أنه أحد ولد الشيطان يعرض للمتطهرين فيوهمهم أن طهارتهم فاسدة فيعيدونها ، وبهذا تؤول السماحة إلى نوع من الإمعان في التطهر والحرص عليه إمعاناً يتجاوز حدود المعقول والمألوف"(١).

ولكن نقادنا القدامى لم يزنوا شعر أبي تمام بهذا الميزان الذي ينظر للفظة نظرة صحيحة والعبور منها إلى المعنى ، وإنما اقتصروا على النظرة إليها بمدلولها اللغوي والوقوف بها عند هذا الحد.

وكثير من نقادنا المحدثين نظروا لشعر أبي تمام نفس النظرة التي رآها القدماء في شعره ، فرموه بالإغراق في البديع ، والخطأ فيه ، وعدم الإفادة من وراء هذه الحلل ، يقول أنيس المقدسي "وأمثال ذلك (البديع) كثير في شعر أبي تمام، فإنك لا تكاد تقرأ له قصيدة حتى تمر ببيت أو بضعة أبيات من هذا الشعر المكدود الذي ينفر منه الذوق السليم ، لما فيه من تكلف الصناعة والاهتمام بالقشور دون اللباب"(٢).

وإن المتلقي ليحس في هذا الحكم بكلام الجرجاني وغيره من النقاد الذين ناقشوا أبا تمام مناقشة شكلية ، ولم يناقشوه مناقشة في الجوهر واللباب – كما يقول د. شوقي ضيف – وبهذه النظرة ظلم أبو تمام من نقادنا القدماء ، ومن كثير من نقادنا المحدثين الذين ضربوا على الوتر نفسه الذي استخدمه أسلافنا الأوائل.

٦ ـ سرقات أبي تمام :

تحدث النقاد كثيراً عن قضية السرقات الشعرية ، فألفوا فيها رسائل خاصة كما فعل بشر بن يحيى النصيبي في رسالته الموسومة بـ "سرقات البحتري من أبي

---

(١) شعر أبي تمام ، د. سعيد مصلح ص ٢٣٨ ، ٢٣٩.

(٢) أمراء الشعر العربي في العصر العباسي ، أنيس المقدسي ص ٢٠٠.

تمام" ، كما كتبوا عنها فصولاً في كتبهم ، كما فعل ذلك الآمدي في موازنته ، والجرجاني في وساطته ، ثم تبعهما النقاد بعد ذلك في الحديث عنها ، كالعسكري ، وابن رشيق وغيرهما.

وقد تحدث الصولي عن السرقات ، إلا أنه سماها الأخذ ، وذلك عند حديثه عن معاني أبي تمام التي يأخذها ويزيد عليها ، وجعلها حينئذ من حق الشاعر الآخذ، يقول الصولي في ذلك : "وليس أحد من الشعراء - أعزك الله - يعمل المعاني ويخترعها ويتكيء على نفسه فيها أكثر من أبي تمام ؛ ومتى أخذ معنى وزاد عليه ، ووشحه ببديعه ، وتمم معناه ، فكان أحق به. وكذلك الحكم في الأخذ عند العلماء بالشعر"(١).

فالصولي هنا سمى السرقة أخذاً ، ووضع ضابطاً لتملك الشاعر هذا الأخذ ، وهو: الزيادة عليه ، والتوشيح بالبديع ، وإتمام معناه - وجعل هذا ضابطاً عاماً عند العلماء بالشعر.

وتحدث الآمدي عن السرقات عامة ، وعن سرقات أبي تمام والبحتري خاصة ، "فعد لأبي تمام ١٢٠ بيتاً أخذ معانيها عن الشعراء ، ثم ناقش ابن أبي طاهر في ما عده من سرقات أبي تمام فصح له ٣١ بيتاً أيده في أنها مسروقة ، ورد مما عده ابن أبي طاهر خمسة عشر بيتاً فكان كل ما أخذه أبو تمام من غيره ١٥١ بيتاً، على هذا الإحصاء. ثم عد للبحتري ثمانية وعشرين بيتاً أخذها من غير أبي تمام وأربعة وستين موضعاً أخذ معانيها من أبي تمام ، وناقش أبا الضياء فيما خرجه من سرقات البحتري ورد عليه ودافع عن البحتري. هذا مع تصريح الآمدي بأنه لم يستقص سرقات البحتري كما استقصى سرقات أبي تمام ، ولو فعل لكانت المعاني التي أخذها البحتري أكثر"(٢).

---

(١) أخبار أبي تمام ، للصولي ص ٥٣.

(٢) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، د. إحسان عباس ص ١٧٦ ، ١٧٧.

ولكن الآمدي في موازنته تحامل على أبي تمام في قضية السرقة ؛ حيث جعل سعة علم أبي تمام وكثرة اطلاعاته سبباً في كثرة سرقاته ، وجعل السرقة الخفية أكثر من سرقاته الظاهرة ، مع كثرتها ، ووعد بأنه سيذكر ما وقع عليه مما كتبه غيره في هذا الجانب ، ثم يلحقه بالذي يراه بعد ذلك مسروقاً ، يقول الآمدي : " كان أبو تمام مستهتراً بالشعر ، مشغوفاً به ، مشغولاً مدة عمره بتبحره ودراسته ، وله كتب اختيارات مؤلفة فيه مشهورة معروفة .... وإنه ما فاته كبير شيء من شعر جاهلي ولا إسلامي ولا محدث إلا قرأه وطالع فيه ، ولهذا ما أقول : إن الذي خفي من سرقاته أكثر مما ظهر منها ، على كثرتها. وأنا أذكر ما وقع إلي في كتب الناس من سرقاته ، وما استنبطته أنا منها واستخرجته ؛ فإن ظهرت بعد ذلك منها على شيء ألحقته بها ، إن شاء الله"(١).

فالتحامل واضح في هذه البداية التي تتهم أبا تمام بسرقة كثير من معانيه نتيجة سعة علومه ، وكثرة معارفه – وليس الأمر كما ذكر الآمدي – فمتى كان العلم ضاراً بصاحبه ؟! ولكنه التعصب على هذا الشاعر الذي سبق زمانه ، وبذ أقرانه ، فلقي ما لقي من عنت النقاد والجامدين.

ويعود الآمدي ، فيذكر أن السرقة داء مشترك بين الشعراء ولم يخل منه أحد، وما فعل ذلك إلا للانتصار للبحتري ، والدفاع عنه فيما سرقه من أبي تمام وغيره ، يقول الآمدي : "ومع هذا فلم أر المنحرفين عن هذا الرجل يجعلون السرقات من كبير عيوبه ؛ لأنه باب ما يعرى منه أحد الشعراء إلا القليل ، بل الذي وجدتهم يعيبونه كثرة خطائه وإخلاله وإحالته ، وأغاليطه في المعاني والألفاظ .... وأن أبا تمام يريد البديع فيخرج إلى المحال"(٢).

---

(١) الموازنة ١/٥٨ ، ٥٩.

(٢) الموازنة ١/١٣٨ ، ١٣٩.

فهروب الآمدي هنا من عيب السرقات لأجل تبرئة ساحة شاعره المفضل ، البحتري ؛ لوقوعه في كثير منها – وإنما جعل العيوب التي تحط من الشاعر ، هي كثرة الخطأ والإحالة ، وأغاليط المعاني والألفاظ ، والبديع – ليلحق هذه العيوب بأبي تمام ، ويدافع عن البحتري فيها ؛ لسلوكه عمود الشعر الذي يلهج به النقاد آنذاك.

ووضع الآمدي ضابطاً عاماً للسرقة ، فأخرج منها المعاني المشتركة المتداولة بين الناس ، وذلك في مناقشته لابن أبي طاهر ، فقال : "ووجدت ابن أبي طاهر قد خرج سرقات أبي تمام ، فأصاب في بعضها ، وأخطأ في البعض ؛ لأنه خلط الخاص من المعاني بالمشترك بين الناس : مما لايكون مثله مسروقاً "[1].

وإنما أطلت الحديث عن الآمدي ؛ لتأثر الجرجاني به في هذه القضية النقدية وترديده لكثير من آرائه وأحكامه فيها.

تحدث الجرجاني عن السرقة ، فذكر أنها داء قديم ، إلا أن المحدثين غيروا في طرقها وبدلوا ؛ ليوهموا النقاد بعدم السرقة ، إلا أن ذلك لا يخفى على العلماء ، قال الجرجاني : "والسرقة – أيدك الله – داء قديم ، وعيب عتيق ، ومازال الشاعر يستعين بخاطر الآخر ، ويستمد من قريحته ، ويعتمد على معناه ولفظه؛ وكان أكثره ظاهراً كالتوارد الذي صدرنا بذكره الكلام ، وإن تجاوز ذلك قليلاً في الغموض لم يكن فيه غير اختلاف الألفاظ ، ثم تسبب المحدثون إلى إخفائه بالنقل والقلب ؛ وتغيير المنهاج والترتيب ، وتكلفوا جبر ما فيه من النقيصة بالزيادة والتأكيد والتعريض في حال ، والتصريح في أخرى ، والاحتجاج والتعليل ، فصار أحدهم إذا أخذ معنى أضاف إليه من هذه الأمور مالا يقصر معه عن اختراعه وإبداع مثله"[2].

ثم يعتذر الجرجاني للمحدثين ، بأنهم سبقوا بالمعاني كلها ، فلم يبق لهم إلا القليل الذي تركه القدماء ؛ ولهذا فإن كل معاني المحدثين مأخوذة من سابقيهم ؛

---

(١) المصدر نفسه ١١٢/١.

(٢) الوساطة ص ٢١٤.

فيجب ألا يحكم عليهم بالسرقة ، يقول : "ومتى أنصفت علمت أن أهل عصرنا ، ثم العصر الذي بعدنا أقرب فيه إلى المعذرة ، وأبعد من المذمة ؛ لأن من تقدمنا قد استغرق المعاني وسبق إليها ، وأتى على معظمها ؛ وإنما يحصل على بقايا ، إما أن تكون قد تركت رغبة عنها ، واستهانة بها ، أو لبعد مطلبها ، واعتياص مرامها ، وتعذر الوصول إليها ؛ ومتى أجهد أحدنا نفسه ، وأعمل فكره ، وأتعب خاطره وذهنه في تحصيل معنى يظنه غريباً مبتدعاً ، ونظم بيت يحسبه فرداً مخترعاً ، ثم تصفح عنه الدواوين لم يخطئه أن يجده بعينه ، أو يجد له مثالاً يغض من حسنه ؛ ولهذا السبب أحظر على نفسي ، فلا أرى لغيري بت الحكم على شاعر بالسرقة .... وإنما أقول : قال فلان كذا وقد سبقه إليه فلان فقال كذا ، فأغتنم به فضيلة الصدق ، وأسلم من اقتحام التهور"(١).

وإنما قدم الجرجاني بهذه المقدمة ؛ ليعتذر بها عن صاحبه المتنبي الذي وقع كثيراً في هذا الخطأ ، وهو خطأ الأخذ ، والتقصير فيه في أحيان كثيرة ، مع أنه أجاد في بعضها.

ويردد الجرجاني كلام الآمدي في أن السرقة لا تكون في الشيء المشهور ، يقول الجرجاني عند موازنته بين بيتين لأبي نواس والأبيرد : "اتفقا في الاستعفاء ، وهي لفظة مشهورة مبتذلة ، فإن كانت مسترقة فجميع البيت مسروق ، بل جميع الشعر كذلك ؛ لأن الألفاظ منقولة متداولة"(٢).

ثم يعود فيقرر أن السرقة إنما تكون في اللفظ المستعار أو الموضوع ، فيقول : "إنما يدعي ذلك (السرقة) في اللفظ المستعار أو الموضوع"(٣).

---

(١) المصدر نفسه ص ٢١٤ ، ٢١٥.

(٢) ، (٣) الوساطة ص ٢١١.

وجعل الجرجاني التمييز بين الشعر المأخوذ والمغصوب والمسروق من أصول العلم ، وعلامات الذكاء والدربة ، فقال : "ولست تعد من جهابذة الكلام ، ونقاد الشعر، حتى تميز بين أصنافه وأقسامه ، وتحيط علماً برتبه ومنازله ، فتفصل بين السرق والغصب ، وبين الإغارة والاختلاس ، وتعرف الإلمام من الملاحظة ، وتفرق بين المشترك الذي لا يجوز ادعاء السرق فيه ، والمبتذل الذي ليس أحد أولى به ، وبين المختص الذي حازه المبتديء فملكه ، وأحياه السابق فاقتطعه ، فصار المعتدي مختلساً سارقاً ، والمشارك له محتذياً تابعاً ، وتعرف اللفظ الذي يجوز أن يقال فيه : أخذ ونقل ، والكلمة التي يصح أن يقال فيها : هي لفلان دون فلان"[١].

ثم فصل أنواع السرقة ، فبين أن منها العام والمشترك بين الناس جميعاً ، وهذا لا يجوز تسميته بالسرقة ، "فمتى نظرت فرأيت أن تشبيه الحسن بالشمس والبدر ، والجواد بالغيث والبحر .... متقررة في النفوس ، متصورة للعقول ، يشترك فيها الناطق والأبكم ، والفصيح والأعجم ، والشاعر والمفحم ، حكمت بأن السرقة عنها منفية ، والأخذ بالاتباع مستحيل ممتنع"[٢].

وذكر أن من الشعراء من يأخذ المعاني المتداولة ، فيضيف إليها من ذوقه وحسه ، مما يجعلها تنسب له ، فقد "يتفاضل متنازعو هذه المعاني بحسب مراتبهم من العلم بصفة الشعر ؛ فتشترك الجماعة في الشيء المتداول ، وينفرد أحدهم بلفظة تستعذب ، أو ترتيب يستحسن ، أو تأكيد يوضع موضعه ، أو زيادة يهتدي لها دون غيره ؛ فيريك المشترك المبتذل في صورة المبتدع المخترع"[٣].

---

(١) الوساطة ص ١٨٣.

(٢) المصدر نفسه ص ١٨٣ ، ١٨٤.

(٣) الوساطة ص ١٨٦.

فهذه هى السرقة الممدوحة ، "ومتى جاءت السرقة هذا المجيء لم تعد من المعايب ، ولم تحص في جملة المثالب ، وكان صاحبها بالتفضيل أحق ، وبالمدح والتزكية أولى"[1].

وعلى هذا نستطيع أن نقول : إن الجرجاني ردد كلام الآمدي في هذه القضية ، ولكنه طور بغضها مع التحليل ، فالجرجاني صنع صنيع الآمدي "فتعقب ما أخرجه أحمد بن أبي طاهر وابن عمار من سرقات أبي تمام وما تتبعه بشر بن يحيى على البحتري ومهلهل بن يموت على أبي نواس. واستخرج من دعاواهم أشياء مضحكة حقاً. لأن الشبه فيها عارض أو لفظي أو لأنه لا شبه بين السارق والمسروق إطلاقاً .... لقد أوحى الآمدي بأنه يكره الحديث في السرقة لأنه لا يراها– وكذلك من قبله من العلماء – عيباً كبيراً على الشاعر ، وها هو الجرجاني يرقى إلى القول بأنه لا يسمح لنفسه ولا لغيره البت في الحكم بالسرقة"[2].

وجاء من بعدهما العسكري ، فتحدث عن السرقة ، إلا أنه سماها أخذاً ، وعقد لها فصلين في كتابه "الصناعتين" ، وجعل الأول في حسن الأخذ ، ووضع له حدوداً ، هي أخذ المعاني من السابقين ، وإلباسها ألفاظاً جديدة من عند الآخذ ، وإبرازها في معارض من تأليفه ، وإيرادها في غير حليتها الأولى ، والزيادة في حسن التأليف ، وجودة التركيب وكمال الحلية والمعرض. فإذا فعل الشاعر ذلك فهو أحق بالمعاني ممن سبقه إليها – وعقد العسكري الفصل الثاني لقبح الأخذ ، وجعل حده : أن يعمد الشاعر لمعنى من المعاني فيتناوله بلفظه كله أو أكثره أو يخرجه في معرض مستهجن[3].

---

(١) المصدر نفسه ص ١٨٨.

(٢) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، د. إحسان عباس ص ٣٢٤ ، ٣٢٥.

(٣) انظر ذلك بالتفصيل في : الصناعتين للعسكري ص ١٩٦ ، ٢٢٩.

وكلام العسكري لا يخرج عن كلام السابقين في هذه القضية ، فهو يقرر ما قرره الصولي والآمدي والجرجاني وغيرهم من النقاد.

وقد تتبع الجرجاني كثيراً من سرقات أبي تمام في وساطته ، فناقش بعضها وسكت عن الآخر ، فأحياناً يكتفي بالإشارة إلى موطن الأخذ ، دون التعليق أو التحليل ، وفي أحيان أخرى يبين موطن الأخذ ثم يحكم للشاعر أو عليه ، حسب مقياس الجودة الذي يراه الجرجاني من اقتراب الشاعر من عمود الشعر أو ابتعاده عنه ، ولنضرب بعض الأمثلة لذلك حتى تتضح الصورة.

فمن هذه الأبيات التي رأى الجرجاني أن أبا تمام أخذها من غيره ، قول أبي تمام :

ولو صورت نفسك لم تزدها   على ما فيك من كرم الطباع

قال الجرجاني ، في معرض حديثه عن السرقة الخفية : "وقال أبو نواس :

خليت والحسن تأخذه

تنتفي منه وتنتحب

فاكتست منه طرائفه

واستزادت فضل

وقال عبد الله بن مصعب :

كأنك جئت محتكماً عليهم   تخير في الأبوة ما تشاء

فأحد البيتين هو الآخر في المعنى ، وإن كان أحدهما يتخير الحسن والآخر يتخير الأبوة ، وإنما هما من قول بشار :

خلقت على ما في غير مخير   هواي ولو خيرت كنت المهذبا

ثم تناوله أبو تمام فأخفاه ، فقال :

ولو صورت نفسك لم تزدها   على مافيك من كرم الطباع"[1].

---

(١) الوساطة ص ٢٠٥.

ولم يزد الجرجاني على أن جعل بيت أبي تمام مأخوذاً من قول بشار ، ولم يبين موطن الأخذ أو الحسن والقبح.

ومن الأبيات التي لم يعلق عليها الجرجاني ، قول أبي تمام:

أما لو أن جهلك كان علما إذن لنفذت في علم الغيوب

قال الجرجاني : "أبو عيينة :

لو كما تنقص تزدا د إذن نلت السماء

فنقله أبو تمام:

أما لو أن جهلك كان علما

إذن لنفذت في علم الغيوب

أبو الطيب:

ولو نقصت كما قد زدت من كرم

على الورى لرأوني مثل شانيكا

فزاد بقوله: "لرأونى مثل شانيكا"[1]

فقد رأى الجرجاني أن المتنبي هو الذي زاد على الشاعرين ، صاحب المعنى والآخذ الأول – مع أن معنى أبي تمام جيد وفيه زيادة عن المعنى الأول.

ومنها ، قول الجرجاني : "العباس بن الأحنف :

لو قسم الله جزءاً من محاسنها في الناس طرا لتم الحسن في الناس

أبو تمام:

لو اقتسمت أخلاقه الغر لم تجد معيباً ولا خلقاً من الناس عائبا

وقلبه فقال:

لو أن عشر الذي أمسى وظل به بالعالمين من البلوى إذا فسدوا"[2]

---

(١) الوساطة ص٢٢٧

(٢) المصدر نفسه ص٢٩١.

فالجرجاني لم يعلق على أبيات أبي تمام المسروقة ، وإنما اكتفى بإيرادها دون التعليق عليها بالزيادة أو النقص ، ولا بالإجادة أو الضعف !.

وكان الجرجاني يعلق على الأخذ والسرقة في أحيان أخرى ، فمن ذلك قوله: "قال أبو تمام – وقد روى هذا البيت لبكر بن النطاح ، وقد دخل في شعر أبي تمام :

ولو لم يكن في كفه غير نفسه   لجاد بها فليتق الله سائله

قال أبو الطيب :

يا أيها المجدى عليه روحه   إذ ليس يأتيه له استجداء

احمد عفاتك لا فجعت بفقدهم   فلترك مالم يأخذوا إعطاء

وبيت أبي تمام أو بكر النطاح أملح لفظاً وأصح سبكاً. وزاد أبو الطيب بقوله: إنه يجدي عليه روحه. ولكن في اللفظ قصور ، والأول نهاية في الحسن"[1].

فالجرجاني يرى أن بيت أبي تمام هو الأصل ، ويرى أنه غاية في الحسن ؛ لجودة لفظه وصحة سبكه ، مع أن المتنبي زاد في المعنى – إلا أن الجرجاني يشك في هذا البيت ، وينسبه لأبي تمام ولبكر بن النطاح ، مع أن البيت موجود في ديوان أبي تمام ضمن قصيدة يمدح بها المعتصم بالله ، وروايته هكذا :

ولو لم يكن في كفه غير روحه   لجاد بها ، فليتق الله سائله [2]

وعلق المحقق عليه بقوله : "هذا البيت لا يوجد في (س) وفي (م)"[3].

فربما لم يطلع الجرجاني على كل النسخ ، فجاءه الشك من عدم وجوده في بعضها.

---

(١) الوساطة ص ٢١٦.

(٢) ديوان أبي تمام ٢٩/٣.

(٣) المصدر نفسه ٢٩/٣ – هامش رقم (٤).

ومن تعليقات الجرجاني على أبيات أبي تمام المسروقة ، قوله : "وقول ابن المعتز :

مازال يلطم خد الأرض وابلها حتى وقت خدها الغدران والخضر

وشتان ما بين هذا اللطم ولطم أبي تمام في قوله:

ملطومة بالورد أطلق دونها في الخلق فهو مع المنون محكم

وإنما نازع أبا نواس قوله :

تبكي فتذري الدمع من نرجس وتلطم الورد بعناب

فسبق أبو نواس بفضل التقدم والإحسان ، وحصل هو على نقص السّرق والتقصير ؛ لكنه أحسن في بقية البيت فجبر بعض ذلك النقص"[1].

فالجرجاني هنا غير واضح في نقده ، حيث نراه عاب اللطم في قول أبي تمام دون أن يبين وجه العيب فيه ، ثم نراه يتهم أبا تمام بالسرقة من أبي نواس والتقصير – مع عدم وضع يدنا على موطن هذا التقصير – ثم يعود أخيراً فيبين أنه أحسن في بقية البيت فجبر بعض ذلك النقص ، وهذا نقد مضطرب وغير كامل الأسس والقواعد الفنية.

وقد علق الآمدي على البيت بقوله : "وسمع (أبو تمام) أبا نواس قال:

يبكي فيذري الدمع من نرجس ويلطم الورد بعناب

فقال وأساء كل الإساءة وقصر وقبح في صدر البيت :

ملطومة بالورد أطلق طرفها

في الخلق فهو مع المنون محكم"[2]

---

(١) الوساطة ص ٣٨.

(٢) الموازنة ٩٧/١.

ونقد الجرجاني قريب جداً من نقد الآمدي ، في تعميم الأحكام ، وعدم بيان مواطن الضعف والتقصير ، إلا أن الجرجاني زاد عن الآمدي ببعض الكلمات المبهمة التي لا تفيد نقداً محللاً.

ومن هذا القبيل ، قول الجرجاني : "ويقول (أي أبو دهبل الجمحي) وهو يمدح خليفة:

مازلت في العفو للذنوب وإط	لاقٍ لعان في جرمه غلق
حتى تمنى البراء أنهم	عندك أمسوا في القد والحلق

أخذه أبو تمام ، فقال :

وتكفل الأيتام عن آبائهم	حتى وددنا أننا أيتام

فنازعه (أي أبا دهبل) وانفرد (أي أبو تمام) دونه بالعيب ؛ لأن أبا دهبل زعم أن البرآء يتمنون أن يذنبوا فيصيبوا عفوه ، ولا نقص في ذلك على الممدوح ؛ لأن انفراده بالعفو متعذر ، وإنما سببه إلى ذلك ذنب المجرم وخطأ الجاني. وزاد أبو تمام فزعم أنهم يتمنون اليتم ؛ ليصلوا إلى رفده ، ويلحقوا بالأيتام في تكفله ، والممدوح ممكن من إفاضة العدل ، وبث العرف ، وإغنائهم عن هذا التمني الذي لا يختاره العاقل إلا بعد بلوغ الجهد منه ، ووصول القنوط إلى قلبه ، واستيلاء الضنك على معيشته ؛ وليس من صفة الجواد أن يعرض مداحه وقصاده ، ومن علقت به آماله ، وسمت إليه همته لسوء الحال ، ويكلفهم الأماني الرذلة"[1].

هذا هو تعليق الجرجاني على بيت أبي تمام ، وهو تعليق جيد ، ونقد مقنع معلل ، ونحن إن كنا نوافقه عليه ، إلا أننا لا نوافقه على عده من المنازعة والأخذ – فشتان ما بين المعنيين ، فالأول يصور سعة عفو الممدوح حتى تمنى البرآء الذنب لإصابتهم عفوه ، والثاني في تكفل الممدوح بالأيتام وإغداقه عليهم وزيادة عطفه عن الآباء حتى تمنى الناس أنهم أيتام ليدخلوا تحت كفالته وعطفه !.

---

(١) الوساطة ص ٧٣ ، ٧٤.

وهذا البيت لم يرد في السرقات التي عدها الآمدي لأبي تمام ، مما يدل على اعتماد الجرجاني على ذوقه – أحياناً – ، وكثيراً من الأبيات التي عدها سرقة أو أخذاً لم ترد في كتب النقد على أنها سرقة ؛ ولهذا كان الجرجاني يكتفي بذكر صاحب البيت الأول وبيت أبي تمام دون التعليق والنقد – وفي اعتقادي أنه كان يكثر من ذكر هذه الأبيات التي ادعى أنها مسروقة ليعتذر بذلك لصاحبه فيما نسب إليه من كثرة الإغارة والسرق.

وقد اعترف الجرجاني بذلك ، فقال : "ثم أعود إلى نسق الكتاب وأكتفي بما قدمته من هفوات أبي تمام وإن كان ما أغفلته أضعاف ما أثبته ؛ إذ البغية فيه الاعتذار لأبي الطيب ، لا النعي على أبي تمام"[١].

فكان هم الجرجاني حشد عدد كبير من عيوب أبي تمام التي تناقلتها الكتب ، ورددها النقاد دون النظر في كثير منها ، وإنما حكموا عليها بمقياس العمود الشعري، وردد بعضهم أحكام بعض دون إضافة أو تعليل إلا في القليل النادر.

ولم يزد العسكري في تعليقه على هذا البيت عن قوله : "وقد أخذ أيضاً قول أبي دهبل .... فجاء به في بيت واحد"[٢].

بل عده في حسن الأخذ وتداول المعاني.

وربما جعل الجرجاني والعسكري هذا البيت من قبيل السرق ؛ لوجوده في حماسة أبي تمام – وقد علمنا قبل ذلك اتهام النقاد له بالسرقة لاطلاعه على أشعار المتقدمين والمتأخرين !.

ومن السرقات المعيبة التي أخذها الجرجاني على أبي تمام ، سرقته للفظ المستعار، فقال عنه : "وقول آخر :

بكى فاستمل الشوق من حمامة   أبت في غصون الأيك إلا ترنما

---

(١) الوساطة ص ٨٢.

(٢) الصناعتين ، للعسكري ص ٢٠٥.

وقول أبي تمام:

وقد كان يُنسى عهد ظمياء باللوى ولكــن أملتــه عليه الحمائــمُ

فأخذ (أبو تمام) أمل من استمل ، وإن كان تهييج الحمام صبابة المشتاق مبتذلاً"(1).

وهذا البيت موجود في الموازنة ، وقد حققه الآمدي ، وجعله من السرقات التي خرجها ابن أبي طاهر على أبي تمام ، وهي صحيحة ، قال الآمدي :

"فمن السرق الصحيح قول أبي تمام:

كما كاد ينسى عهد ظمياء باللوى ولكــن أمـلـته عليه الحمـائم

أخذ من قول العتابي:

بكى فاستمل الشوق من ذي حمامة أبت في غصون الأيك إلا ترنما

أظن أن قوله من ذي حمامة أراد من صوت حمامة ، دعته إليه الضرورة ، وليس هذا موضع "ذي" . وقوله : "أملته" من قول العتابي : "فاستمل". وقد جاء مثله في أشعارهم"(2).

فواضح من هذين الحكمين دقة الآمدي عن الجرجاني ، من حيث تحقيق النصوص ونسبتها لأصحابها ، وتتبع النص كلمة كلمة ، بخلاف الجرجاني الذي نقل نقلاً غير دقيق ، إذ كان همه كما قلنا حشد أكبر عدد من الأخطاء لأبي تمام – إمام أهل الصنعة – كما يقول الجرجاني نفسه.

والبيت في ديوانه من قصيدة يمدح بها أحمد بن أبي دؤاد ، وروايته في الديوان هكذا :

لقد كان ينسى عهد ظمياء باللوى ولكــن أملــته عليه الحمائم (3)

---

(1) الوساطة ص ٢١٢.

(2) الموازنة ١/١١٢.

(3) ديوان أبي تمام ٣/١٧٦.

وفي شرح التبريزي ، ذكر كلام المعري عن رواية البيت ، فقال : "قوله : "لقد كان ينسى" هي الرواية الكثيرة ، ولفظ البيت يحسن أن يحمل عليها أكثر من حمله على غيرها لأنه قال "ولكن أملته عليه الحمائم" فدل بهذا المقال على أنه كان ثمة مقاربة النسيان إلا أنه لم ينس"(١).

وهكذا حشد الجرجاني كثيراً من الأبيات وجعل أبا تمام سارقاً معانيها وألفاظها من الشعراء السابقين ، وكان قليلاً ما يعلق عليها أو يقف عندها بشيء من التحليل والنقد ، مما يؤكد ما ذهبت إليه من تحامله على أبي تمام وانتصاره لأبي الطيب شاعره المفضل بأي وجه كان.

وبعد ... فهذه هي أهم المآخذ التي أخذها الجرجاني على أبي تمام في أثناء دفاعه عن أبي الطيب المتنبي ، وقد نثرها في ثنايا كتابه الكبير "الوساطة بين المتنبي وخصومه" وجاءت هذه المآخذ كلها في محور واحد ، هو بعد أبي تمام عن عمود الشعر المعروف واختياره لنفسه مذهباً جديداً ، عسر فهمه على هؤلاء النقاد الذين كانوا يزنون الشعر بمفاهيم ومقاييس النقد القديم الأصيل ، الذي يعتمد على الذوق العربي ، وعمود الشعر بألفاظه وصوره القريبة المعروفة - ولكنهم لم يحاولوا أن يصلوا مع الشاعر إلى أغوار فنه وما فيه من طرق ملتوية تتأتى للنفس بعد طول نظر وإعمال فكر وروية ، فظلموا بهذه المقاييس شاعراً من شعراء العربية ، استطاع أن يخط لنفسه طريقاً جديداً ، وأن يحشد فيه فنه وفكره وعصارة عبقريته.

وكان الجرجاني في معظم انتقاداته مردداً لآراء وأفكار الآخرين - وخصوصاً أستاذه ومعاصره - الأمدي- مع قليل من الاختلاف في الذوق والتناول والتحليل والتعليل ، ولا يظن أحد أننا بهذا نظلم الجرجاني أو نغمطه حقه ، بل على

---

(١) ديوان أبي تمام ١٧٦/٣ ، ١٧٧.

العكس فهو ناقد فذ إلا أنه دار في فلك القديم وعاش في بيئة لا تعرف سوى هذه المقاييس فكان واحداً منها.

والذي نؤاخذه عليه ، هو تحامله الواضح على أبي تمام للانتصار لشاعره المتنبي ، فكان لا يترك فرصة تواتيه إلا وينقض على أبي تمام يهدمه بمعاول نقده ، ويحط من شأنه ، ويعري شعره من الفضائل والشاعرية ، وكثيراً ما تجنى عليه وأطلق عليه الأحكام العامة ، كمطالبة الشاعر بإسقاط نصف شعره ، وكالإخبار بأن شعره لا تسلم فيه قصيدة من بيت معيب ، وهكذا – وكان بودنا لو وقف هذا الناقد القاضي بإنصاف بجوار الشعر كشعر دون النظر لقائله قديم أم محدث ، مجدد أم سائر على طراز القدماء ، كما كان بودنا أن يتخلى عن الهوى والتعصب إذ لو فعل ذلك لكان كتابه من أهم الكتب النقدية في القديم والحديث ، أما وقد وجدت فيه مثل هذه السقطات فإنها قللت –بعض الشيء – من شأنه.

وعلى كل حال فيبقى الوساطة كتاباً شامخاً على مر الزمن ؛ لما يحويه من أصول النقد ، وقضاياه التي فتق معظمها الآمدي ومن سبقه ، ويبقى للجرجاني فضل التوسع والإضافة ، والدرس والتحليل.

هذا ... والحمد لله أولاً وآخـــراً.

المصـــادر والمراجـــع

١- اتجاهات النقد الأدبى فى القرن الرابع للهجرة - د/أحمد مطلوب- الناشر - وكالة المطبوعات - الكويت - الطبعة الأولى ١٣٩٣هـ١٩٧٣هـ.

٢- أخبار أبى تمام - تأليف أبى بكر محمد بن يحيى الصولى - حققه وعلق عليه: خليل محمود عساكر ، محمد عبده عزام، نظير الإسلام الهندى - قدم له: أحمد أمين- المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت (ب-ت).

٣- أسرار البلاغية فى علم البيان - تأليف الإمام عبد القادر الجرجانى ت(٤٧١هـ) تعليق وإيضاح الأستاذ: محمد عبدالعزيز النجار - مكتبة ومطبعة محمد على صبيح وأولاده بميدان الأزهر بالقاهرة - ١٣٩٧هـ١٩٧٧م.

٤- الأغانى - تأليف أبى الفرج الأصبهانى، على بن الحسين٣٥٦هـ٩٧٦م- مؤسسة جمال للطباعة والنشر - بيروت - لبنان (نسخة مصورة عن دار الكتب) الجزء السادس عشر.

٥- أمراء الشعر العربى فى العصر العباسى - أنيس المقدسى - دار العلم للملايين - بيروت - لبنان - الطبعة العاشرة - يناير ١٩٧٥م.

٦- البديع - لعبدالله بن المعتز - اعتنى بنشره وتعليق المقدمة والفهارس عليه أغناطيوس كراتشقوفسكى (عضو أكاديمية العلوم فى لينغراد)- لندن ١٩٣٥م.

٧- البيان والتبيين - تأليف أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ - تحقيق وشرح حسن السندوبى - قدم له ونقحه وأعد فهارسه: مصطفى القصاص - دار إحياء العلوم - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

٨- تاريخ الأدب العربى - العصر العباسى الأول - د/شوقى ضيف - دار

المعارف بمصر - الطبعة الثانية ١٩٧٢م.

٩- تاريخ النقد الأدبى عند العرب من العصر الجاهلى إلى القرن الرابع الهجرى تأليف المرحوم الأستاذ: طه أحمد إبراهيم - دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ١٩٨٥م.

١٠- تاريخ النقد الأدبى عند العرب نقد الشعر من القرن الثانى حتى القرن الثامن الهجرى د/إحسان عباس - دار الثقافة - بيروت - لبنان - الطبعة الرابعة ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

١١- حماسة أبى تمام وشروحها - دراسة وتحليل د/ عبدالله عبدالرحيم عسيلان - دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابى الحلبى وشركاه ١٩٧٨م.

١٢- دراسة فى حماسة أبى تمام - الأستاذ: على النجدى ناصف - مطبعة الرسالة ١٩٥٩م.

١٣- ديوان أبى تمام بشرح الخطيب التبريزى - تحقيق: محمد عبده عزام - دار المعارف بمصر - الطبعة الرابعة ١٩٧٦م.

١٤- سر الفصاحة - للأمير أبى محمد عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجى الحلبى المتوفى سنة ٤٦٦هـ شرح وتصحيح: عبدالمتعال الصعيدى - مكتبة ومطبعة محمد على صبيح وأولاده بالقاهرة ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م.

١٥- شرح الحماسة- أبو زكريا يحيى بن على الخطيب التبريزى (ت٥٠٢هـ) تحقيق وتعليق الأستاذ: محيى الدين عبدالحميد - مطبعة حجازى بالقاهرة ١٣٥٨هـ.

١٦- شرح الحماسة - أبو على أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقى (ت٤٢١هـ) تحقيق: عبدالسلام هارون، أحمد أمين - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - الطبعة الثانية ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

١٧- شعر أبى تمام بين النقد القديم ورؤية النقد الجديد - سعيد مصلح السريحى

النادى الأدبى الثقافى – جدة – المملكة العربية السعودية – الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ – ١٩٨٣م.

١٨- الشعر والشعراء – ابن قتيبة – دار الثقافة – بيروت (ب.ت).

١٩- الصناعتين –الكتابة والشعر– تصنيف أبى هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكرى – تحقيق: على محمد البجاوى، محمد أبو الفضل إبراهيم – المكتبة العصرية– صيدا بيروت ١٤٠٦هـ١٩٨٦م.

٢٠- طبقات الشعراء ، لابن المعتز– تحقيق: عبدالستار أحمدفراج – دار المعارف بمصر – الطبعة الرابعة ١٩٥٦م.

٢١- العربية والغموض – دراسة لغوية فى دلالة المبنى على المعنى – د/حلمى خليل – دار المعرفة الجامعية – اسكندرية – الطبعة الأولى ١٩٨٨م.

٢٢- العمدة فى محاسن الشعر وآدابه – تأليف الإمام أبى على الحسن بن رشيق القيروانى (٣٩٠هـ–٤٥٦هـ) تحقيق: د/محمد قرقزان – دار المعرفة بيروت – لبنان الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ–١٩٨٨م.

٢٣- الفن ومذاهبه فى الشعر العربى – د/ شوقى ضيف – دار المعارف بمصر – الطبعة العاشرة ١٩٧٨م.

٢٤- مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – العدد الأول – رجب ١٤٠٩هـ فبراير ١٩٨٩م.

٢٥- ملامح النقد العربى فى القديم – د/عبدالرحمن عبدالحميد–الجزء الأول – مطبعة الأمانة ٣ش جزيرة بدران شبرا–مصر– الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ– ١٩٨٩م.

٢٦- الموازنة بين أبى تمام والبحترى – تصنيف الإمام الحسن بن بشر بن يحيى الآمدى البصرى المتوفى فى عام ٣٧٠هـ– تحقيق وتعليق: محمد محيى الدين عبد الحميد – الجزء الأول – المكتبة العلمية – بيروت ١٣٦٣هـ–

١٩٤٤م.

٢٧- الموازنة بين شعر أبى تمام والبحترى، لأبى القاسم الحسن بن بشر الآمدى (٣٧٠هـ) تحقيق: السيد أحمد صقر - دار المعارف بمصر - الطبعة الرابعة - الجزء الأول، الجزء الثانى- توزيع مكتبة الخانجى بالقاهرة ١٩٩٢م.

٢٨- الموازنة بين شعر أبى تمام والبحترى - لأبى القاسم الحسن بن بشر الآمدى (٣٧٠هـ) دراسة وتحقيق: د/عبدالله حمد محارب - الجزء الثالث القسم الأول، القسم الثانى- الناشر: مكتبة الخانجى بالقاهرة-الطبعة الأولى ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

٢٩- الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء - تأليف أبى عبدالله محمد بن عمران بن موسى المرزبانى المتوفى سنة ٣٨٤هـ تحقيق وتقديم: محمد حُسين شمس الدين - دار الكتب العلمية بيروت - لبنان - الطبعة الأولى ١٤١٥هـ١٩٩٥م.

٣٠- نقد الشعر، لأبى الفرج قدامة بن جعفر - تحقيق وتعليق: د/محمد عبدالمنعم خفاجى - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان (ب.ت).

٣١- النقد المنهجى عند العرب - د/محمد مندور - دار نهضة مصر للطبع والنشر الفجالة - القاهرة (ب.ت).

٣٢- نوابغ الفكر العربى (القاضى الجرجانى) د/أحمد أحمد بدوى- دار المعارف بمصر ١٩٦٤م.

٣٣- الوساطة بين المتنبى وخصومه - للقاضى على بن عبدالعزيز الجرجانى - تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، على البجاوى - منشورات المكتبة العصرية - صيدا - بيروت (ب.ت).

٣٤- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان-أبو العباس شمس الدين أحمد بن خلكان (ت٦٨١هـ) تحقيق:د/إحسان عباس-دار الثقافة-بيروت - الطبعة الأولى (ب.ت).

فهرست الموضوعات

الموضوع		رقم الصفحة
	٣- التعقيد والغموض في معاني الشعر وأخطاء المعاني	١٠١-١١٧
	٤-الاستعارات القبيحة في شعر أبي تمام.	١١٧-١٣١
	٥- البديع وإغراق أبي تمام فيه.	١٣١-١٣٨
	٦- سرقات أبي تمام.	١٣٨-١٥٤
المصادر والمراجع		١٥٥-١٦٠
فهرست الموضوعات		١٦١-١٦٢